

الغموض في الشعر العربي

للدكتور / مسعد بن عيد الطوي

الأستاذ المساعد في قسم الأدب

بكلية اللغة العربية بالرياض

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

* إن احتجاب الفكرة ، والابتعاد عن المواجهة المباشرة ، والافضاء بها بأساليب انيقة منتقاة ومختارة ، سر من اسرار الابداع الفني في الأدب العربي بعامة والشعر بخاصة .

وهذا البحث يتناول قضايا الغموض في الشعر العربي :-
فنستهل حديثنا ، بالعصر الجاهلي والأموي ، وكيف تأى بعض الشعر عن المواجهة والمكاشفة والوضوح ؟ ، ثم نقف وقفة طويلة عند العصر العباسي وخاصة شعر أبي تمام بصفة خاصة ثم نتحدث عن دوافع الغموض في الشعر العربي .
أما الجزء الثاني فسوف نتناول فيه الحديث عن الغموض في الشعر العربي المعاصر ، مصادره ، واسبابه ومظاهره ، واختلاف النقاد حوله .

الغموض

* نحمدك اللهم أطيب الحمد وأوفاه ، ونشكر لك أصدق الشكر وأخلصه ، ونصلي ونسلم على سيد الهداة ، خير من نطق فأفصح ، وأبان فأعجز ، وكان للفصحاء قدوة وللبلغاء إماما ، وبعد :-

* إن العناية والتواصل النقدي مع الأدب العربي ليس مصدره حب النموذجية ، ولم يكن الدافع إليه العصبية ، وإنما مصدره التواصل معه احتواؤه على القيم الجمالية التي يحفل بها ، ومصادق مقولتنا هذه أن أرباب المذاهب المتنافرة والمتعارضة والمنظور بعضها عن بعض ، الكل يجد مثلاً صافياً نقياً ، وريراً من هذا الحوض الشعري ، وهو لم يكن معلماً جمالياً فحسب ، وإنما مجمع حضارة وحياة شعوب ، بل الشعر هو النهر المتدفق الذي تنساب فيه جداول وقنوات الأمة العربية عبر الحقب الزمنية قبل الإسلام ، وكانت القوالب الفنية وجمالياتها هي التي اجتذبت الأدباء والمنظرين للفن للتواصل مع الحياة الجاهلية الأمر الذي يدعم أهمية النفعية في الفن ، وقد قيل : إن «الشعر هو روح المعرفة الشفيفة ، والتعبير العاطفي المرتسم على وجه كل العلوم»^(١) .

وقد قال عنه شللي : «إنه مركز المعرفة ومحيطها ، إنه ذاك الذي يشتمل على العلم كله ، والذي يرد إليه كل العلم ؟ إنه في ذات الوقت جذر الفكر وبرعمه»^(٢) .

* والتلاحم الأدبي مع الحياة الواقعية التي تندمج مع الأفراد حتى أصبحت النصوص الأدبية مشاعة ، فتأثرت بها مكونات وآليات الذهنية ومقومات العناصر الأدبية ، وهذا التأثير الطويل الأمد في المخيلة الجماعية لم يأتها عن التنوير والتحول ، والتطوير .

(١) د . عادل سلامة ، الأدب الأنجليزي المعاصر ، ٨ .

(٢) د . عادل سلامة ، الأدب الأنجليزي المعاصر ، ٨ .

• والسؤال الذى يُطرح في المقام الأول هو : هل الأدب العربى بعمامة والشعر بخاصة يحمل في أعماقه الفنية الواناً من الجماليات الفنية التي تحدت مساراتها ، وثقفت بالتمحيص ، وبنيت بالضوابط في عصر الثراء الفكرى المعاصر ؟ ويلحق به السؤال التالى أيضا : أنستطيع أن نكشف عن تلك المسارات الأدبية في الشعر الجاهلي وماتلاه من عضور ؟

• والقصيدة العربية تنفذ عبر الحقب على جسر اللغة ، التي تمثل سحرها الجمالي وجسدها الذى يَمور بالحركة ، وينضج بالغنى والدلالة الوجدانية والفكرية الجمالية ، إنها مركز الفتنة والحيوية ومن هنا تشعبت مساراتها الفنية ، واختلفت أطرها اللغوية ، الأمر الذى جعل القصيدة العربية منهل يرتوى منه كل وارد له ، فأصحاب الكلاسيكية يتشبثون به ، وأصحاب الواقعية يمجّدونه ، وأهل الفن للفن يقطفون من ثماره .

وقد تذهب الغالبية العظمى من منظرى الأدب العربى المحدثين إلى القول بأن اتجاه الشعر الجاهلي انطباعى ذو . تأثير واقعي يعتمد على الحسية ، من هنا تبلور المذهب النقدي الذى يرجح أن كفة الشعر الجاهلي تميل إلى الاضاءة والكشف والوضوح .

ونحن لسنا بصدد البحث عن كل ذلك إنما نريد أن نستقصى النظر في تواصل الشعر العربى مع «قضية الغموض» فحسب .

الشعر الجاهلي متلاحم مع الحياة العربية ، فهو صورتها التي تمثل الوضوح والبساطة والواقعية ، التي شاكل فيها طبيعة الفرد والمجتمع الجاهلي مع ما يحتمه السماع العاجل لرواية الشعر ، ولكن ليس معنى ذلك أننا نعدم الجنوح عن التقريرية ، فإننا نلمح نفثات كثيرة تحاول أن تجعل المتعة الفنية قابلة للتأمل ، فإن سلامة بن جندل إذا أراد أن يصف أويمدح فإنه يعرض عن الصفات الإيجابية المباشرة ويعد إلى نفي الصفات المستقبحة وفي هذا دعوة للتأمل والابحاء والبعد عن التقريرية المباشرة يقول :-

ليست من الزل أردافا إذا انصرفت ولا القصار ولا السود العناكيب

وأبعد من هذا تناول طرفه معشوقته بالوصف حيث وصف الظبية التي تماثلها لكي يقول إن هذه أوصاف من يعشق :-

وفي الحى أحوى ينقض المردشادن مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد
خذول تراعى ربربا بخميلة تتأول أطراف البرير وترتدى^(٣)
والنابغة الذبياني أكثر استرسالا في وصف المشبه به حين يقول :

فبت كأي ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع
يسهد من ليل التمام سليمها لحلى النساء في يديه قعاقع
تناذرهما الراقون من سؤسمها تطلقه طورا وطورا تراجع^(٤)
كل هذا ليقول أن حالتي وما يعتريني من وجيف ورعب ، ورعشة وسهد مماثل
للسليم الذى أحاطه بأوصاف توحى بسوء حالته وشدة معاناته .

ونحن لانعدم الجنوح عن التقريرية في كثير من التراكيب الجاهلية ، فالعرب في
جاهليتهم الأولى تناولوا الأساليب الفنية التي لاتواجه الفكرة مباشرة ، ولاتنقص إلى
كشفها وإيضاحها ، وإنما أخذت تصقلها من وراء حجاب من الألفاظ والتعابير .

ومن ذلك الألغاز التي تعتمد على تفرغ اللفظة من معناها المصطلح عليه ولكنه
لايليث بأن يشير إلى خاصية تشير اشارة خفية للمعنى المراد منها كقول عبيد بن
الأبرص :-

ما السود والبيض والأسماء واحدة لا يستطيع لهن الناس تماسا
وما يشاكل الغموض المعاصر تلك الإشارات القصيرة التي يحتاج في فهمها إلى
فطنة وغوص ولايدركها إلا نفر قليل ، كقول القائل :-

«إن العرفج قد أدبى ، وقد شكت النساء ، وأمرهم أن يعرفوا ناقتي الحمراء ، فقد
اطالوا ركوبها ، وأن يركبوا جملي الأصهب بآية ما أكلت معكم حيسا ، وأسألوا الحارث
عن خبرى» .

(٣) شرح القصائد السبع للأنباري تحقيق عبد السلام هارون ص ١٣٩ وشرح العقائد العشر للتبريزي ص ١٠٠ .

(٤) ديوان النابغة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣٤ .

فلما وصلت الرسالة قالوا والله مانعرف له ناقة حمراء ولا جملا أصهب «فلما دعوا الحارث قصوا عليه القصة فقال :

«انذركم ، أما قوله أدبي العرفج يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح ، وقوله : شكت النساء أى اتخذت الشكاء للسفر ، وقوله الناقة الحمراء أى ارتحلوا عن الدهناء ، واركبوا الصمان وهو الجمل الأصهب وقوله بآية ما أكلت معكم حيسا ، يريد أن اخلاطا من الناس قد غزوكم لأن الحيس يجمع بين التمر والسمن والأقط»^(٥) .

ومنه قوله رجل من بني تميم كان أسيراً فكتب إلى قومه^(٦) :-

حلوا عن الناقة الحمراء ارحلكم والبازل الاصبه المعقول فاصطنعوا
ان الذئاب قد اخضرت برائنها والناس كلهم بكر إذا شبعوا

وقد ادخل الدكتور عبد الكريم اليافي هذا اللون ضمن الرمز وصنفه ضمن الالغاز وإن كان أعم غير أننا نرى التباعد بين اللونين فالالغاز بعيدة كل البعد عن الغموض وتأثير اللفظة والعبارة ، أما هذا اللون الأخير فإنه أكثر التصاقا بالغموض لأننا نصل إلى مضمونه عن طريق سبر أغوار الكلمة والعبارة .

ومثله كثير في العصر الأموي ومنه قول أعشى همدان حينما كتب إلى والٍ تجاهله وجفاه :

تمنيني إمارتها تميم	وما أمي بأم بني تميم
وكان أبو سليمان أخالي	ولكن الشراك من الأديم
اتينا أصبهان فهزلتنا	وكنا قبل ذلك في نعيم
أذكرنا ومرة إذ غزونا	وأنت على بغيلك ذى الوشوم
ويركب رأسه في كل وحل	ويعثر في الطريق المستقيم
وليس عليك إلا طيلسان	نصيبي وإلا سحق نيم

(٥) عبد الكريم اليافي ، دراسات فنية في الأدب العربي ص ٢٦٦ .

(٦) السيوطي ، المزهري ، ١ : ٥٦٨ .

فقد أصبحت في خزوقز تبختر ما ترى لك من حميم
وتحسب ان تلقاها زمانا كذبت ورب مكة والحطيم^(٧)

فبعث إليه خالد : من مرة هذا الذى أدعيت أنى وأنت غزونا معه على بغل ذى
شوم ؟ ومتى كان ذلك ؟ ومتى رأيت على الطيلسان والنيم اللذين وصفتهما ، فأرسل
إليه هذا الكلام أردت وصفك بظاهرة ، فأما تفسيره مرة مرارة مرة ماغرست عندى
من القبح ، البغل المركب الذى ارتكبته منى لايزال يعثر بك في كل وعث وجود ووعر
وسهل وأما الطيلسان فما البسك أياه من العار والذم^(٨) .

وهناك مظاهر فنية نابعة من عدم المباشرة والاتجاه إلى الإبهام كالاستعارة والمجاز
وبعض ألوان التشبيه ، والتعريض ، والتورية ، والتخييل ، والتوجيه ، وكل هذه
من المظاهر الفنية التي وجدت قبل مصطلحاتها وقد استخدمها الجاهليون
والإسلاميون كقول جرير :-

لو كنتُ أعلمُ ان آخر عهدكم يوم الرحيل فعلتُ ما لم أفعلُ

فأخذ عليه النقاد أنه لم يصرح بما يريد أن يفعله وترك السامع في حيرة من أمره «أراد
أن يبكى إذا رحلوا ، أو يهيم على وجهه من الغم الذى لحقه أو يتابعهم إذا ساروا ،
أو يمتنعهم من المضى ...»^(٩) .

ولكن المعاصرين رغبوا في هذا الفضاء الذى تركه ليتأمل القراء من بعده ليتذوقوا
المتعة الفنية .

أما في العصر العباسى فقد استغربت اللغة الشعرية نظرا لطول الرحلة ولما اعترأها
من رقة الحضارة ولضرورة البساطة للشعوب المتعددة لذا مال إليها الرواة وأهل اللغة
وحاولوا توجيه الشعراء إلى بناء القصيدة الجاهلية وألفاظها فكثرت الشعر الغريب عند
بعض الشعراء كأبى حفصه وأمثاله ممن كانوا يعرضون اشعارهم على اللغويين ،

(٧) ديوان أعشى همدان تحقيق د . حسن عيسى ص ١٦٠ .

(٨) الأغاني ٦: ٤٣ ، عبد الكريم الياق ، دراسات فنية ، ٢٦٨ ، الأغاني .

(٩) د . بدوى طبانه ، قضايا النقد الأدبي ص ١٢٦ .

فكان الغموض الذى يُلْمَحُ فى شعر هؤلاء يتأتى نتيجة استلهاهم الشعراء كثيراً من الألفاظ الغريبة التى هُجرت فى المجتمع العباسى ، مما جعل بشر بن المعتز يشير إلى ذلك فى قوله :-

«وأياك والتوعر ، فإن التوعرَ يسلكُ إلى التعقيد ، والتعقيدُ هو الذى يستهلك معانيك ، ويشين الفاظك»^(١٠) .

حتى جاء أبو تمام فجمعَ بين عمقِ المعنى وبعدِ المآخذ وعدمِ المباشرة والتراسل وغربة الألفاظ وعنه يقول ابن رشيّق «كان يذهبُ إلى حزنَةِ اللفظِ وما يملأُ الاسماعِ منه ، مع التصنيع المحكم طوعاً وكَرْها . ويأتى للأشياء من بُعْدٍ ويطلبُها بكلفةٍ ويأخذُها بقوة»^(١١) . ومن الشعر الغامض قوله :

نوى كانهضاض النجم كانت نتيجة من الهزل يوما أن هزل النوى جد
وقوله :

فكأن افئدة النوى مصدوعة حتى تصدع بالفراق فؤادى
فإذا فضضت من اليالى فرجت خالفنها فسدنها ببعاد
وقوله :

أهيس أليس لجاء إلى همم تغرق الأسد فى آذينا الليسا
ويشير ابن الأثير إلى الغموض فى شعر أبى تمام ، ويمتدحه ويقرضه ، فيقول فى معانية «إن لابتكارها سرا لا يهجمُ على مكانته إلا جنانُ الشهم ، ولا يغورُ بمحاسنه إلا مَنْ دَقَّ فهمُهُ حتى جَلَّ عن دقة الفهم»^(١٢) .

وقد جمع الأمدى التراسلَ بين المحسوس والمعنوى فى شعر أبى تمام فقال جعل الدهر كريماً وله يدٌ تُقطعُ . .^(١٣) والجدير بالذكر أن الأمدى هو أول من اطلق لفظ

(١٠) د . بدوى طبانه قضايا النقد الأدبي ص ١٣١ .

(١١) محمد نبيه حجاب ، معالم الشعر وأعلامه ص ٢٥٢ العمدة ١ : ١٣٠ .

(١٢) المثل السائر ١٩٣ ، امراء الشعر العربي ص ٢٠٣ .

(١٣) الوساطة ص ٦٧ فى قوله «الا لا يمدُّ الدهر كفاً نَسْءُ : الى مجتدى نصر فتقطع للزئد .

الغموض على شعر أبي تمام فقال مَنْ فَضَّلَ أبا تمام ونسبه إلى غموض المعاني ودقتها ، وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج^(١٤) .

وقد أحس المعاصرون له بهذا الغموض وانكره حتى عابوا عليه ذلك حين أنشد عبد الله بن طاهر قصيدته التي استهلها بقوله :-

أهَنَّ عوادى يوسف وصواحيبه فعزما فقعدماً أدرك السؤال طالبه
فقليل له لم تقول مالا يفهم ؟ فأجاب السائل : لم لانفهم ما يقال^(١٥)
ومن شعر الغموض عند أبي تمام قوله :-

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كف قاطب
فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى وصارت لها اشباحهم كالغوارب
يصرقُ سراها جذيل مشارق إذا آبه همَّ عُذيقُ مغارب
يرى بالكعاب الرود طلعة نائِرٍ وبالعِرس الوجناء غرة آيب^(١٦)

ومنه من يرى أن أسباب الغموض في شعره تعود «إلى أن أبا تمام يتتبع حوش الكلام ويتعمد ادخاله في شعره»^(١٧) والواقع أن الغموض لم يأت من الألفاظ فحسب وإن كان لها دور فهو ضئيل جداً ولكن الغموض يصدر عن تناول المضامين وبعد هذا التناول والمأخذ :-

ومن تفريع اللفظة من معناها الأول واعطائها معنى جديداً قوله :-

تروح علينا كل يوم وتغنى خطوب يكاد الدهر منهن يصرع^(١٨)
وشعر أبي تمام يميل إلى الواقعية والعقل فاعتماده على العقلانية والمنطقية جعله يُسخر المذهب العقلي ، ويتلاقى مع الشعور في مرحلة تسمو على السطحية وتحتاج إلى التعمق والتدبر يقول :-

(١٤) ٣ : ١ : الأمدي / الموازنة ١ : ٤

(١٥) امراء الشعر العربي ص ٢٠٧ .

(١٦) المرجع السابق ٢١٠ .

(١٧) الموازنة ص ١٢٠ .

(١٨) الصولي ، اخبار ابي تمام ص ٢٤٧ .

لو كان يفنى الشعرُ افناء ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه فيضُ العقول إذا انجلت سحائبُ منه أعقبت بسحائب^(١٩)

يقول الجرجاني في كتابه الوساطة «فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل
في كثير من الفاظه فحصل منه على توفير اللفظ فقيح في غير موضعٍ عن شعره فقال :

فكأنها هي في السماع جنادلُ وكأنها هي في القلوب كواكبُ

فتعسفَ ما أمكن ، وتغلغل في التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى
أضاف إليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب ، ولم يرض
بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعاني الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل
فيها كلَّ غثٍ ثقیل ، وأرصد لها بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع
السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد اتعاب الفكر ، وكذا خاطر ، والحمل على
القريحة ، فإن ظفربه فذلك من بعد العناء والمشقة ، وحين حَسَره الاعياء ، وأوهن
قُوَّتَه الكلالُ ، وتلك حال لا تنهش فيها النفس للاستماع بحسن ، أو الالتذاذ
بمستظرفٍ وهذه جريرة التكلف^(٢٠) .

وهذه المعاييبُ التي ذكرها الجرجاني مطلبٌ فنى في عصرنا هذا لكن الذى جعلها
تغلو وتتجاوز الحدَّ في نظرهم كونهم إصطدموها بها لأول مرة فكان ثقلها من الصعوبة
بمكان .

والغموض الذى شاع وذاع في شعر أبى تمام قد أحدث جدلاً ، ولفت الأنظار إلى
المفارقة الكبرى بين مذهبين في الأدب العربى لأول مرة إحداهما السهولة والوضوحُ
التي تُمثل الامتدادَ للسياق الفنى والأسلوب الشعرى العربى وثانيهما المولودُ الجديدُ
للتكوين الحضارى الذى تنامى من الفكر الإسلامى ، وتمازج مع الروافد الفكرية
التي تصب في النهر الكبير الذى نجم عنه ولادة العلماء المفكرين والشعراء المشهورين
كامثال أبى تمام والمتنبى والمعرى إذن فأبو تمام نتيجة التنامى والتلاقح الفكرى أوقل :

(١٩) د . نجيب البيهتي ، تاريخ الشعر العربى ص ٤٩٩ .

(٢٠) الجرجاني الوساطة ص ١٩ .

هو آية النضح الحضارى . فيمثل القمة الفكرية والقمة الأسلوبية والقمة الفلسفية للجمال الفنى ، وليس أدل على ذلك من إنقسام الناس حوله فمنهم مَنْ شايعه وعاضده ، وعظمه ورفع مكانته وهم أولئك الصفوة من الملائ ، ومن مفكرى العصر فى حينه ، حتى أخذوا يتهادوه وبخلوا على الناس بمدائحهم . ومنهم من هيمن عليه السياق السلفى فرأى من المحاسن ما رأى فى شعره ، وأنكر الذى لم يساير السياق السالف . والدليل على واقعية مذهب أبى تمام أن الذين رأوا فيه خاصية الغموض لم يعارضوها أشد المعارضة وإنما استدلوا بخروجها عن المذهب الفنى أما كلام ابن الأعرابى ودعبل فليس حجة . والذى نستقرئه ونستنتجه من المعركة الأدبية حول أبى تمام أنها رأت لونا جديدا من الجمال الفنى يتغاير مع النسق القديم فحدث ذلك صراعا تمخض عن طلائع الغموض وتكوين الآراء حوله بين مؤيد ومعارض ، فإول مرة نجد أن الشعر يوصف بالوضوح وقرب المأخذ إلى جانب من يطلب البعد والتأمل وسبر أغوار النص ليمت الكشف متأخرا ثم تكتمل المتعة الفنية .

ونحن لو تتبعنا تاريخاً أقوال النقاد لتبين مناهج النقد عندهم لرأينا أن الشعر الجاهلى يميل إلى الكشف والوضوح والواقعية ، ولذا فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى شعر زهير : كان لا يصف الشيء إلا بما فيه أو لا يعاظم فى الكلام ومعنى ذلك أنه قريب المأخذ ليس فى شعره لبس ولا غموض . وقد ايد الخفاجى فى كتابه سر الفصاحة هذا الاتجاه حين برزت المقارنة بين الوضوح والغموض فأتى بالبراهين لتأييد مذهبه فى الكشف والوضوح فقال :-

«والدليل على صحة ما ذهبنا إليه أن الكلام غير مقصود فى نفسه ، وإنما احتيج إليه ليعبر الناس عن أغراضهم ويفهموا المعانى التى فى نفوسهم ، فإذا كانت الألفاظ غير دالة على المعانى ، ولا موضحة لها ، فقد رُفِضَ الغرض فى أصل الكلام ، وكان ذلك بمنزلة من يضع سيفاً للقطع ، ويجعل حده كليل ، ويعمل وعاء لما يريد أن يحرقه ، فيقصد إلى أن يجعل فيه خروقا تذهب ما يؤعى فيه ، فإن هذا مما لا يعتمد عليه عاقل ، ثم لا يخلو أن يكون المعبر عن غرضه بالكلام يريد أفهام ذلك المعنى أولا يريد أفهامه ، فإن كان يريد إفهامه ، فيحب أن يجتهد فى بلوغ هذا الغرض ، بايضاح

اللفظ ما أمكنه ، وإن كان لا يريد افهامه فليدع العبارة فهو أبلغ في غرضه»^(٢١) .

وأما الفئة التى أغرمت بالجمال الفنى الذى سما إليه أبو تمام ، فإنها تتمثل فى أولئك الذين تشعبت مفاهيمهم وتعددت ثقافتهم ومالوا إلى العقلانية والمنطقية ، واهتبلوها واغتنموها ، ورغبوا فى تجسيدها ، لما رأوا مثالها يتبلور فى الجماليات التمامية . وكأنها الإشارة للانطلاق إلى التنظير لهذا اللون الفنى ، وكأن المنظرين يريدون ذلك لكن يعوزهم الشاهد والمثال والاحتذاء ، فوجدوا ضالتهم فى نتاج أبى تمام . ومنهم من يرى أن الوضوح فى النثر وأن التأمل والبعد فى الشعر .

يقول أبو اسحاق الصابى «إن طريق الاحسان فى منشور الكلام ، يخالف طريق الاحسان فى منظومه وإن الترسل هو ما وضع معناه وأعطاك سماعه فى أول وهلة ما تضمنته ألفاظه ، وأفخر الشعر ما غمض ، فلم يعطك غرضه إلا بعد ملاحظة»^(٢٢) . ويشير حازم إلى الإيهام فى الشعر فيقول «يجب ألا يسلك التخييل سلك السذاجة فى الكلام ، ولكن يتقاذف بالكلام فى ذلك إلى جهات من الوضع الذى تتشافع فيه التركيبات المستحسنه والترتيبات والاقترانات ، والنسب الواقعة بين المعانى»^(٢٣) . ويقول عبد القاهر الجرجاني محببا الغموض الذى لا يصل مرحلة الانغلاق «وما كان منها ألف - كما يقول عبد القاهر الجرجاني - كان امتناعه عليك أكثر ، وابطؤه أظهر ، واحتجابه أشد ومن المركز فى الطبع أن الشئ إذا قيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجمل وألطف ، وكانت به أضن واشغف» .

وقد علق الدكتور بدوى طبانه على مقالة الجرجاني فقال :-

«ولكن عبد القاهر لم يدع الحبل على الغارب ليسرف من شاء كما شاء حتى يصبح الفن الأدبي الجميل ضرباً من التعمية والالغاز ، فتصور من يقول له : يجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعتمد ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له وزائداً فى

(٢١) الحفاجى - الفصاحة ص ٢٥٩ (بدوى طبانه قضايا النقد الأدبي ص ١٢١) .

(٢٢) المثل السائر : ٤١٤ : ٢ .

(٢٣) د . بدوى طبانه ، قضايا النقد الأدبي ص ١٢٧ .

فضله وكان جوابه على ذلك الاعتراض أنه لم يرد هذا الحد من الفكر والتعب وإنما أراد القدر الذى يكون المعنى فيه كالجوهر فى الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه ، وكالعزير المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه»^(٢٤) .

«ولو كان التعقيدُ وغموضُ المعنى يسقطان شاعرا لوجب أن لا يرى لأبى تمام بيت واحد ، فأنا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وفر من التعقيد حظهما ، وأفسد به لفظهما ، ولذلك كثر الاختلاف فى معانيه ، وصار استخراجها باب منفردا ، يتسبب إليه طائفة من أهل الأدب ، وصارت تتطرح فى المجالس مطارحة أبيات المعانى ، وألغاز المعنى ، وليس فى الأرض بيت من أبيات المعانى لتقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر ، ولولا ذلك لم يكن إلا كغيره من الشعر ، ولم تفرد فيها الكتبُ المصنفة ، وتُشغلُ باستخراجها الأفكار الفارغة»^(٢٥) .

والجرجانى يطيل الوقوف عند أسباب الغموض ومنها ما يعود إلى اللفظ وغرابته ، أو بعده وتغير مفاهيمه ، ومنها ما يبعد معناه مع سهولة الفاظه ويسرّها كقول الأعشى .

إذا كان هادى الفتى فى البلا د صدر القناة أطاع الامير

فقد علق عليه الجرجانى بقوله «فإن هذا البيت - كما تراه - سليم النظم بعيد اللفظ عن الاستكراه ، لا تُشكل كل كلمة بانفرادها على أدنى العامة ، فإذا أردت الوقوف على مُرادِ الشاعر فمن المحال عندى ، والممتنع فى رأى ان تصل إليه إلا من شاهد الاعشى بقوله ، فاستدل يشاهد الحال وفحوى الخطاب .

أما أهل زماننا فلا أُجيز أن يعرفوه إلا سماعا إذا اقتصر بهم من الانشاد على هذا البيت المفرد ، فإن تقدموه أو تأخروا عنه بأبيات لم أبعد ان يستدل ببعض الكلام على بعض ، وإلا فمن يسمع بهذا البيت ؟ فيعلم أنه يريد :-

(٢٤) د . بدوى طبانة قضايا النقد الأدبي ص ١٣٠ .

(٢٥) الجرجانى الوساطة ص ٤١٧ .

أن الفتى إذا كُبر فاحتاج إلى لزوم العصا اطاع لمن يأمره وينهاه ، واستسلم لقائده وذهبت شرته» .^(٢٦) .

ويشير ابن رشيق إلى الغموض بقوله «وهى لمحة دالة ، واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه»^(٢٧) .

والواقع أن هذه المرحلة تمثل البذرة الأولى لطرح قضية الغموض في الأدب العربي من جانبيها الإبداعي والتنظيري ، فهي قد تجلت للعيان وأصبحت قضية تناوّلها الجميع كل حسب ذوقه وانطباعه ، فمنهم المؤيد ومنهم المعارض ولم يكن هناك مرحلة وسط لأن المؤيدين أنفسهم هم الذين يمثلون الاعتدال فيرجعون بالغموض النسبي ويدعون إليه .

غير أنهم اتفقوا على عدم المغالاة ومجاورة جعل المتعة في بلوغ الهدف من هذه التسمية أو الإيهام وليس منهم من دعا إلى الغموض غير المتناهي بقول ابن الأثير «وقران الشيء بما يزيل الغموض أو الأشكال الواقع فيه يكون بأن يتبع الشيء بما يكون شرحا له ، أو تفسيرا من جهة ما يكون في معناه ويجب أيضا على الشاعر فيما يمكنه أن يبين عنه حق الإبانة أن يقرن ذلك دلالاته في معنى دلالاته أو من جهة ما يناسبه ويشابهه ويكون بأشياء خارجة عن معنى الشيء إلا أن فيها دلالات على أبانة ما أنبهم في الأشياء المقترنة بهذا المعنى بما يناسب ويقرب منه في المعاني الجليلة ليكون في ذلك دليل على ما أنبهم من ذلك المعنى ، إذ قد يستدل على المعنى بما يجاوره من المعاني وينبه بعضها على بعض»^(٢٨) .

ومن النقاد المعاصرين من يرى كثافة الرمز في الشعر العربي ، والذي يتعانق مع الغموض البسيط ، فإنهم يعتقدون أن الشاعر الجاهلي يرمز بذكر أطلاله ويذكر معشوقته ومعاناته معا فحين يطارد الصيد ويلاحقه فإنه يرمز إلى مصاعب الحياة وألوان الشقاء فيها ، وربما يرى فريق من النقاد أن الشعر الجاهلي : يرمز إلى نواحي دينية

(٢٦) الجرجاني الوساطة ص ٤١٨ .

(٢٧) ابن رشيق ، العمدة : ٢٠٦ : ١ ، دراسات في لغة الشعر ص ٨ .

(٢٨) ابن الأثير ، المثل السائر ص ١٧٨ دراسات في لغة الشعر ص ١٠ .

واساطير مغرقة في القدم في بعض اشعارهم وأنى استبعد ذلك غير أن الذى أميل إليه أن الشاعر العربى استخدم نوعا من تفريغ المعانى في مرحلة متأخرة ربما بدأت بقصيدة أبى ذؤيب الهذلى في مريته لأبنائه حيث يرثى أبنائه أولا ، ثم اعقبها بقصتين تحكيان معاناة الصيد من أثر المطاردة ثم يقع صريعا ، وبهذا يحكى الصراع المرير مع الحياة . ويلحق بذلك ما تجسد في مقدمة القصيدة العباسية حيث أنهم نهجوا منهج عمود الشعر العربى غير أنى لاستبعد تسخيرهم أغراض المقدمة للرمز عن أحوالهم ومعاناتهم ، وليربطوا بين تلك الحالة وبين ما تأول إليه حالتهم بعد النوال بما يماثل الرياض والشعاب والزهور والورود التى اورقت وازدانت بعد هطول المطر على أرضها .

ومرحلة الغموض التى ذكرنا ولادتها مع أبى تمام وتميزت عن غيرها باعتمادها على الجمال الفنى فهى تلجأ إلى العتمة والالهام رغبة في بلوغ القمة الفنية لأن الماطلة والتنقيب تؤدي إلى التشويق ومن ثم زيادة اللذة بالعثور على المراد .

وإذا نظرنا إلى الأدب الصوفى نجد عملية التفريغ من المحتوى المعنوى والدلالى المباشرين تتبلور بوضوح وجلاء وهى نابعة عن مطلب فنى ، فقد اتخذ شعراء الصوفية من أساليب الغزل والوجدان والصبابة سواء بالمعشوقات أو بالذكر سبيلا إلى العشق الإلهى تعالى الله عما يصفون - كما يدعون فهم واصفون المعشوقات بما تميل إليه القلوب ، وأى صراحة أن الغاية من التعبير عما يختلج في نفوسهم تجاه الله سبحانه وتعالى فهذا شاعرهم يقول :-

كلُّ ما اذكره	من	طلل	أو ربوع	أو مفانٍ كلُّ ما
وكذا إن قلتُ	هى	أو قلتُ هو	أو همو	أو هن جميعا أو هما
وكذا السحبُ	إذا قلتُ بكت	أو كذا الزهرُ	إذا ما ابتسما	
أو بروقٍ	أو رعودٍ	أو صبا	أو رياح	أو جنوب أو سما
أو نساءٍ	كاعبات	نهدٍ	طالعاتٍ	كشموس أو دمي
كل ما اذكره	مما جرى	ذكره	أو مثله	أن تفهما
منه اسرارٌ	وانوارٌ	جلت	أو علت	جاد بها رب السما

لفؤادي أفؤاد من له مثل مالي من شروط العلما
صفقة قدسية علوية أعلمت أن لصدقي قدما
فاصرف الخاطر عن ظهرها واطلب الباطن حتى تعلم^(٢٩)
ومن ألوان الغزل التي جعلوا باطنها يقصد به التواصل مع الإله قول ابن عربي :-

ادر ذكر من أهوى ولو بملام فإن أحاديث الحبيب مدامي
بروحي من أتلفت روحي بحبها فحان حمامي قبل يوم حمامي
اصلى فاشدو حين أتلو بذكرها وأطرب في المحراب وهي أمامي
وبالحج إن أحرمت لبيت باسمها وعنها أرى الأمساك فطر صيامي
ولما تلاقينا عشاء وضمنا سواء سبيل دارها وخيامي
تثنت فخلنا كل عطف تهزه قضيب نقا يعلوه بدر تمام
ولمنا كذا شيئا عن الحي حيث لا رقيب ولا واش يزود كلام
فرشت لها خدى وطاء على الثرى فقالت لك البشرى بلثم لثام
وبتنا كما شاء اقتراحي على المنى أرى الملك ملكى والزمان غلامي^(٣٠)

ولم يقفوا عند هذا فحسب بل أنهم يدعون أن جميع الأوصاف للخمره والسكر
والكأس والزهور والورود إنما تدل على التفانى في المحبة الالهية .

ورمزيتهم وغموضهم هذا يوحى أكثر ما يوحى بالمعاناة المتجذرة في أعماقهم ، فهم
يريدون التنفيس عن الكبت الذاتى الذى يضطرم في صدورهم ، أما كونها ترمز
للذات الإلهية والعشق لله - تعالى الله عما يدعون - ولانشك في جنوحهم بهذا
الأدب ، وفي توظيفه لمعتقداتهم الباطلة ، ونظر لاعتماد التصوف على النطق ، فربما
ظهرت شهواته عن طريق الاستعمال الفظى لأوصاف المعشوق فحسب .

(٢٩) دراسات في لغة الشعر ص ١٢٩ .

(٣٠) ديوان ابن عربي شرح النابلسي ٦١:١ دراسات في اللغة والشعر ص ١٢٦ .

أسباب الغموض في الشعر العرب

حين نستقرئ النصوص الشعرية العربية القديمة ، والتنظيرات النقدية التي صحبتها أو لحقت بها ، عبر الاحقاب الأدبية نجد أن اسباب الغموض في الشعر العربي القديم تنحصر في الأمور الآتية :-

١ - القدرة على الاحتجاب لاثارة التفكير ، وذلك بأن يجد القارئ نوعا من التعمية والايهام في النص حتى يُعْمِلَ فكرةً ، ويطيل تأمله ، ويزداد تشوقه للكشف والاضاءة ، ومن ثم يتبلور له المعنى وينكشف غطاؤه «لأن المعاني إذا جاءت خفية أو مقنعة تترك النفس في تطلع دائم لاستكناه حقيقتها وإدراك ما يراود منها ، وفي ذلك متعة للنفس ، وتنشيط للعقل وللتفكير الإنساني ، ويفقد الشعر ثلاثة أرباع المتعة التي يشعر بها القارئ ، وهو يضرب رويدا في أودية الحرس ، ويذهب قدرة الشعر على الإيحاء تلك القدرة التي تميزه من النثر»^(٣١) .

ومن الأفضل أن يكون الحفاء غير متعمدٍ من الشاعر ، وأن يكون وليد القدرة الفنية ، غير من ألا مانع يمنع من ارادة الشاعر التعمية إن استطاع أخفاء هذه الإرادة ، وإن لا يتجلى التكلف فيفسد الشعر ويبعد عن الذوق الفني السليم لأن «المعاني وإن كان أكثر مقاصد الكلام ومواطن القول تقتضى الإعراب عنها والتصريح عن مفهوماتها فقد يقصد في كثير من المواضع إغماضها وإغلاق باب الكلام دونها ، وكذلك أيضا قد يقصد تأدية المعنى في عبارتين إحداها واضحة الدلالة عليه والآخرى غير واضحة الدلالة لضرور من المقاصد . فالدلالة على المعاني إذن على ثلاثة أضرب دلالة إيضاح ، ودلالة إيهام ، ودلالة إيضاح وإيهام معا»^(٣٢) .

وقد اهتدى ابن رشيق إلى أسلوب أبي تمام في كلمة موجزة هي قوله : «فاما حبيب

(٣١) د . بدوي طبانه قضايا النقد الأدبي ص ١٢٩ .

(٣٢) الأثير ، المثل السائر ص ١١٦ ودراسات في لغة الشعر ص ١٠ .

فيذهب إلى حزوته اللفظ ، وما يملأ الاسماع منه ، مع التصنيع المحكم طوعا وكرها ، يأتي للأشياء من بعد ، ويطلبها بكلفة ، ويأخذها بقوة»^(٣٣) . وقال الجرجاني عن مذهب أبي تمام (وتغلغل في التعصب كيف قدر . . حتى اضاف إليه طلبت البديع فتحمله من كل وجه وتوصل إليه بكل سبب ولم يرض بهاتين الخلتين حتى أجتلب المعاني الغامضة ، وقصد الاغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد اتعاب الفكر وكذا الخاطر ، والحمل على العزيمة»^(٣٤) .

وتلك الضوابط الفنية أو المسارات المؤدية إلى معالم الجمال قد اهتدى إليها المنظرون الأوائل ، وأبانوا عنها وفصلوا القول فيها وفرعوها مما يدل على تقدمهم في ترسية المعالم الفنية الجمالية التي تفترض الفروض وتورد الاحتمالات والتفسيرات التي لاتتجاوز الحدود الفنية .

٢ - أن يخفي الشاعرُ المعنى تقية وسترا كأن يقع ظلم أو غلظة أو تجاوز على المجتمع من الولاة ، فيميل الأدباء إلى معالجة الموضوع معالجة خفية لا يدركها إلا أصحاب العقول ، ويكون الأديب في منجاة من أمره لاحتمال التأويل ، ويكون مخاطبة راقية ودلالة لطيفة من الأدباء للولاة ومن بيدهم الشأن .
ومثل ذلك الخشية من المجتمع حين يعتقد أن مخالفة عادة من عاداته أمر يدعو إلى نبذ الشعار وعاقبه فيلجأ إلى الغموض .

٣ - ومنها ما يكون ترفعا وتعاليا عن القول الفاحش من الغزل المكشوف مثلا أو الوقوع في الشتم والسب بما لا يليق من الالفاظ «الاخفاء والستر قد يكون حسنة من حسنات الكلام ، وقد يكون بعض الأحيان ضرورة من الضرورات توجيهها عفة القلب وعفة اللسان والعلم»^(٣٥) .

٤ - والالفاظ هي الحلة التي تعطى جمالا أو قبيحا أو تباينا نسبيا والغموض من

(٣٣) ابن رشيقي العمدة ١ : ١٣٠ .

(٣٤) الجرجاني ، الوساطة ١٩ ، وامراء الشعر العربي ص ٢٠٦ .

(٣٥) د . بدوي طباطبائي قضايا النقد الأدبي ص ١٢٩ .

جانب الألفاظ كثير القنوات متعدد الموارد فربما ألبس الجميل حلة قبيحةً ومن ثم يكون قبيحا ، وربما أعطى القبيح حلة جميلة فيكون جميلا حتى يكشف سبر غوره .

والغموض في الألفاظ ربما يأتي من ذاتية الألفاظ واختيارها وغرابتها وبعدها أو أن الشاعر لم يحالفه التوفيق في اختيارها واقتباسها والغربة في الألفاظ كثرت في الشعر الجاهلي وفي العصر العباسي عمد إليها أبو تمام مما جعلها تأخذ بشعره إلى أودية من الغموض كقوله :-

وقد قلت لما اطلختم الأمور وانبعثت عسواء تالية فبسا دها ريسا
وقوله :-

هن البجاري يابجير أهدي لها الأبوس الغوبر^(٣٦)
وربما أتى من التوعر الذي يسلم إلى التعقيد ، وذلك بأن يُركَّبَ الجمل ويصغى صياغةً لاتعطي الدلائل التي نلمح فيها غاية الشاعر كما في قوله .

آثرني إذ جعلته سندا كل امرئ لاجيء إلى سنده
اِثَار شُرَّ القوي رأى جسد المعروف أولى بالطب من جسده
يريد آثرني اِثَار القوي وقد جاهد للمعروف ودأب يناصره .
وقوله :-

لعمري لقد حررت يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يبرد^(٣٧)
ويأتي الغموض والخفاء «من غرابة اللفظ وتوحش الكلام ، ومن قبل بُعد العهد بالعادة وتغير الرسم» ، كاختلاف الناس في قول تميم بن مقبل :-

يا دار سلمى خلاء لا اكلفها إلا المرانة حتى تعرف الدنيا
فالذي خالف بين أقاويلهم فيها هو أنهم لم يعرفوا المرانة فقال قائل هي : ناقتة ،

(٣٦) الأمدى الموازنة ص ١٣ ، د . محمد نبيه ، معالم الشعر واعلامه ص ٢٥١ .

(٣٧) د . انيس المقدسي ١٩٨ .

وقال آخر هي موضع دار صاحبتة ، وقال آخر إنها أراد الدوام والمرونة»^(٣٨) . ومنها أن يكون اللفظ سليما خاليا من التعقيد ومن الغرابة والاستكراه وأن الفاظ التركيب واضحة الدلالة يدركه الخاصة والعامة ، غير أنك إذا أردت الوقوف على غاية الشاعر لم تدركها .

كقول المعلوط :

بل ربّ محرارٍ تجاوزته ييسطه الهامة والمشفيرين
مأهولة الأرض إذا أصبحت مجديّة الحيزوم والمرفقين

«البيت الأول منكشف المعنى وأما الثاني فلا يعلم إلا وحيا أو سماعا ولو بلغ طالبه في علم العرب كل مبلغ ، وحمل على فكره فوق الطاقة ، وإنها معناه أن هذه الناقة إذا أصبحت وانقادت فإن رؤوس الأمل عند رجلها ، لأنها أقوى على السير منها ، وصدرها خالٍ لم تلحق به ناقة لقصورهن عنها»^(٣٩) .

ومنه قول الشاعر :-

فجنبت العوار أبا زنيب وجاد على محلتك السحاب
يظن السامع أنه دعاء له وهو دعاء عليه لأنه يقصد أن تجودَ السحاب على أرضه
بعد أن يفنى ماله وسائمته من إبل وأغنام فتشتد عليه الحسرة والندم^(٤٠) .

ويقرب منه «قول الآخر :-

وأنى لظلام لا شعث بئس عرانا ومقدور برى ماله الدهر
وجارٍ قريب الدار . أوذى جناية بعيد محل الدار ليس له وفر
هل يشك من أنشدتهما أن الشاعر وصف نفسه بأقبح الصفة ، وأضاف إليها اشنع الظلم ، وإنها يريد أنى أظلم الناقة فانحر فصيلها لأجل هذا الاشعث الجار ولو

(٣٨) الجرجاني الوساطة ٤١٧ .

(٣٩) الجرجاني الوساطة ص ٤١٨ .

(٤٠) الوساطة ص ٤١٩ .

قال : إنى لنحار لأتضح المعنى ولم يخل البيت^(٤١) . من جانب المعنى .

من هذه الشواهد ندرُ وجودَ الغموض في الشعر العربي بل إنها لم تكن ظاهرة فحسب فهي قضية من القضايا التي تناوَلها الاقدمون بالبحث والتنقيب والتنظير يقول الجرجاني «وأمثال هذه الأبيات موجودة شائعة ، واستقصاؤها مفارق للرسم ، وخارج عن الشرط ، والكتب المصنفة فيها معروفة والرجوع إليها ممكن»^(٤٢) قال ذلك في معرض دفاعه عن الغموض في شعر المتنبي .

ومما يؤدي إلى الخفا والضبابية حول المعاني من قبل الألفاظ ما أشار إليه ابن رشيق في تعليقه للغموض عند أبي تمام .

يذهب إلى مرونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها ، ويأتي للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة^(٤٣) .

ويلحق بالغرابة التي تؤدي إلى الغموض ، تقادم الاستعمال للغة ، وليست من اللغة الشائعة أو سياق التراكيب المستخدمة ، ومما يؤدي إلى العتمة والايهام استخدام الألفاظ المشتركة ومنها الأسلوب الذي كثر عند الفرزدق ، وهو مخالفة تركيب أصول الجملة من التقديم والتأخير غير المعهود ، ومنها الإيجاز المتجاوز الحد .

٥ - إلا يغار وراء طلب الطباق والجناس والوانٍ من البديع ، وقد عثر الادباء والمنظرون على أمثلة كثيرة في ديوان أبي تمام ومنها :-

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلتُ والشمس واجبة من ذا ولم تجب وقوله :-

فأنت لديه حاضر غير حاضر بذكر وعنه غائب غير غائب

٦ - ومما يؤدي إلى خفاء المعاني عمقها بحيث تحتاج إلى كد الذهن وصعوبة

(٤١) الجرجاني الواسطة ص ٤١٩ .

(٤٢) الجرجاني الواسطة ص ٤١٩ .

(٤٣) ابن رشيق العمرة ١ : ١٣٠ .

ادراكها بالأساليب الثرية فكيف بالأساليب الشعرية كأن يتناول الشاعر أحد المعانى الفلسفية الجدلية .

«ومنها ان يكون قد أدخل ببعض اجزاء المعنى ، فلم تستوف اقسامه ، بأن يذهل القائل عن بعض أركان المعنى أو يجهله . . ومنها أن يكون المعنى مبنيًا على مقدمات غير معروفة أو على معنى غير معلوم ، فيتعذر فهم المعنى المراد إلا إذا عرفت المقدمات ، أو عرف المعنى الأصلي الذى قام عليه المعنى المقصود»^(٤٤) .

الغموض فى الشعر العربى المعاصر :-

من حسن الطالع للشعر العربى المعاصر أن حركة البعث والاحياء التى رادها البارودى ونحض زبدتها أحمد شوقى ، وحافظ أبراهيم ومعاصروهم من الشعراء ، إن تلك الحركة قد سبقت الحركة التنظيرية المتواصلة مع الأدب الغربى ، مما جعل الأصالة فى مركز قوة وصدارة تصطدم بصخرتها الأفكار غير البنائية ، فتذبل وتضمهر ، ومع تلك القوة والتجذر ، فإن الأدب لم يوصد الأبواب والنوافذ التى تشرق منها شمس المعرفة والحكمة ، وفق نظرية التأثر والتأثير ، والتفاعل مع المزج الثقافى العالمى ، الذى يتعرض له إنسان اليوم سيما فى فكره وأدبه ، ولذا فإن نفحات التيارات الأدبية بما فيها من تلوث قد كونت مفاهيم كثيرة من الأدباء والمنظرين العرب الذين تصدروا لتنظير المذاهب الأدبية من كلاسيكية ورومانسية ، وواقعية وبرناسبية (الفن للفن) فتداخلت مصطلحاتها مع المصطلحات الأدبية العربية بل إن التنظير السالف على يد مدرسة الديوان ، وأبولو نجم عنه نشؤ جيل من الأدباء ، يرتشفون من رحيقه ، فتجسد التنظير فى الابداع ومن القضايا الحية التى على مسرح الطرح والحوار والنقاش قضية الغموض فى شعرنا العربى المعاصر ، وقد تجسدت دواوين شعرية تحمل أنماطا من الغموض وذلك ما دعانى إلى أن اتناول الغموض فى هذا البحث المتواضع .

وقضية الغموض فى العصر الحديث تشعبت أكثر من قبل ، وإن دلّ تكوينها على

(٤٤) د . بدوى طبانه ، قضايا النقد الأدبي ص ١٣٢ .

تجذرهما من الأصالة العربية ، ولكن ظلال العصر والتأثير بالأدب الأجنبي أمدتها بالتكوينات الفكرية المختلفة ، فمن الادباء مَنْ يعارضُ الغموضَ ، ويدعى أن العصرَ السرعةَ واللمحةَ الخاطفةَ ، وإن انسانَ اليومَ في شغلٍ شاغلٍ فلا يملك الوقت الكافي للتبحر في أساليب النص البعيد المأخذ ، وآخرون يعتقدون أن الأدب روضة من الرياض يلجأ إليها أنسانُ التقنية ليريح عقله وروحه ، فالنص الأدبي يتمتع به العقل ويلهو كما يأنس النظر إلى الحداثق الغناء والمناظر الجميلة ، وفريق ثالث يعتقد أن الأدب شعبي ، ويجب أن يعالج ويمتّع الشريحة الكبرى من المجتمع ، وأن غموضه يؤدي إلى عزله في شريحة صغيرة . وجماعة من المنظرين يرون أن العصرَ العلمى الصناعى الآلى سلبَ الفردَ الاحساسَ والشعور ، لذا فمن وظائف الشعر أن ينمى هذا الشعور ويقضى أربه ولن يتأتى إلا بالسهولة والوضوح .

وشرائح اخرى من منظرى الأدب ، يؤيدون الغموض ويدعون إليه ، أنه مطلب فنى وليجارى التطور البنائى الحضارى ، وهؤلاء اختلفوا ، لا وتفرقوا شيعا ، فمنهم المعتدل الذى لا يتجاوز بالنص إمكانية الكشف والاضاءة ، ومنهم من يدعو إلى انغلاق النص ، ولكل إن يكيفه حيث شاء .

والغموض لم يكتمل له هذا المصطلح إلا متأخرا لذا كانوا يطلقون عليه الإبهام والتعمية ، والغموض وغيرها مما يؤدي إلى ذلك المعنى لذا عرف صاحب المعجم الأدبي الإبهام بأنه «تعمية»^(٤٥) : اتيان بالشىء المغلق الذى لايدل عليه الظاهر ، ولا يمكن الوصول إليه إلا بارشادٍ وتوضيح يردان من خارج الأثر نفسه»^(٤٦) .

ويعالج جبور في معجمه قضية الغموض «بأن الشعرَ هو تعبيرٌ عن حالةٍ لاشعورية متفجرة من الاعماق ، متحرر من قيود المنطق ، تفجأ الشاعرَ كأنفجار الحمم البركانية فهي بالتالى تفرض وجودها عليه ، فلا تتيح له وعيا كافيا لاختيار ، ما يترجمها من

(٤٥) جبور عبد النور المعجم الأدبي ص ٣ والمعجم يسوق بعض المصطلحات الأدبية ويجلو ابعادها ضمن اتجاه معاصر مع الإشارة إلى ما قد تتضمنه من مدلولات .

(٤٦) سبق وان ذكرنا ان الأمدى أول من ذكر لفظة الغموض في ثنايا حديثه عن أبى تمام ، ولكنه لم يستخدم كمصطلح يستخدمه النقاد وإنما كان ماثلا للإبهام والابهام ، والتعمية ، ونابت هذه الالفاظ عن بعضها .

العبارات الجلية . وذهب المغالون أيضا إلى أبعد من هذا ، فقالوا إن الشاعر نفسه قد لا يفهم في وعيه ما انبثق عنه وهو في حالة اللاوعي ، فيعجز في يقظته عن ادراك معاني قصيدته ، وينجم عن ذلك اختلاف في فهم الشعر باختلاف النقاد ، وتنوع المحللين ، وقد ينتهون احيانا في تخريج معانيه إلى مذاهب متعارضة^(٤٧).

وربما نجد في تحفظ أدونيس الرد المباشر على المغالين الذين ذكرهم المؤلف حين أشار إلى الغموض «الشعر نقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحا بلا عمق ، والشعر كذلك ، نقيض الابهام الذي يجعل من القصيدة كهفا مغلقا»^(٤٨). وقيل فيه «الغموض الفني هو الفني في الشعر ، أما الغموض الاحترافي فهو الفقر»^(٤٩).

وهذا تعريف أو إشارة إلى الاعتدال وعدم المغالاة .

وقيل أيضا «إن شعراء الغموض يقطعون الحصرم ولما يصبح بعد عنباً»^(٥٠).

أما الدكتور سعيد علوش . فيقول عن الغموض :-

١ - طبيعة خطاب لغوى أو أى نظامٍ دال ، يملك عند متلقيه أكثر من معنى ويستحيل عليه تأويله بدقة .

٢ - ويفترض اعلان خبر من قبل باعته لوضوحه ما دام يبلغ معنى واحدا إلا إذا كان باعث الخبر يرغب في توصيل معاني مختلفة .

٣ - ويعود الغموض إلى تعدد القراءات / التأويلات / المقاصد .

٤ - كما يعزى الغموض إلى تعدد المعاني القاموسية .

٥ - وتساهم البنية السطحية للخطاب في تمثيلاتها ، سيميائية متعددة بانتاج الغموض التركيبى»^(٥١). وقد عرفه «اميسون» بقوله : «الغموض يمكن ان يعنى

(٤٧) جبور عبد النور المعجم الأدبي : ص ٣ .

(٤٨) ادونيس مقدمة الشعر ص ١٢٤ .

(٤٩) (٥٠) جبور عبد النور ، المعجم الأدبي ١٨٧ .

(٥١) د . سعيد علوش المصطلحات الأدبية المعاصرة .

عدم القطع فيما تعنيه أو ترمى لأن تعنى أشياء كثيرة أو احتمال أن تعنى هذا أو ذاك أو كليهما معا ، وحقيقة إن جملة لها عدة معانٍ»^(٥٢) .

وقد تحمل القصيدة اشاراتٍ وعلاماتٍ ودلائل مختلفة بين القارئ الواحد في ظروفه ومتغيراته وتداعى فكره أو تداعى شعوره ويلحق بذلك عامة الشعراء فمكوناتهم الفكرية وبنائها مختلف أو ربما متباين ، ومتغيراتهم متلونه ، ودوافعهم متباعدة ، والوعى والعمق الفكرى نسيبان . ولا يضر كل هذا القصيدة فى شىء من أمرها ولا ينقص من قيمتها الفنية ، بل يجسد وراء الصور آفاقا متعددة ينبجُم عنها تفسيرات مختلفة وهذا وذاك مما يثرى القصيدة ويجعلها تزخر بالكثافة الإيحائية ، «وهناك تتحول القصيدة من تجربة محددة إلى عمل فنى متكامل يشمل الرؤية الشاملة للوجود مما يفتح قنوات متعددة لإثراء الانفصال الذى ينفصل بالطبع عن صور الفكر المصقولة مما يجسد القصيدة ويكسبها نماء تتحول به إلى معاناة تبتعد عن مجرد السرد اللفظى والصياغة الماهرة والمهارة اللغوية التى تحشد وتجمع ، وليس معنى ذلك بالطبع أننا نطلب من الشاعر أن تتحول قصيدته الى تداخلٍ كثيف نضل في متاهاتٍ أحرشه الغامضة»^(٥٣) .

وقد يتأتى الغموض من تكاتف العناصر الفنية التى تغلب على تكوين النص الفنى من حيث الالفاظ ودلالاتها وإيحائها الموسيقى والتصويرى ويتبع ذلك من النص وجوانيته وعوامل تكوينه الخارجية مع التزامه بالمعيارية وربما يتبلور من خلال أسلوب يميل إلى البساطة غير أن القدرة الفنية تدخل فيه عناصر الحياة وتجعله ينبض بفيض من الشعور والاحساس والفضاءات النفسية المتغيرة «وهذا الغموض قد يكون مقصودا فنيا حيث يعتمد الشاعر على النسيج البنائى للقصيدة ، وما به من تفاعلات داخل الفاظها وقدراتها على فتح مجاهيل التلوينات والإيحاءات مما يعطى تخصصا فى عملية الإدراك ، فقد تكون العبارة فى بعض الأحيان بسيطة واضحة إلا أنها تخفى وراءها

(٥٢) د . إبراهيم السنجلاوى ، موقف النقاد العرب من الغموض ص ٣٠ بحث مخطوط أما (امبسون) فإنه ألف

كتاباً فى الغموض وقسمه إلى سبعة أنماط ، وقد اشار إليه الدكتور السنجلاوى فى بحثه .

(٥٣) رجا عيد ، دراسات فى لغة الشعر ص ٢٠ .

علما بالغ التعقيد والصعوبة ، فالمسألة ليست غموضا ، أو وضوحا بقدر ما هي بالضرورة قدرة فنية تجمع بين تشابك المبنى مع المعنى ، وقد تحس في بعض الشعر احساسا بالغموض قد يكون لعدم وضوح الرؤية الفنية لدى الشاعر أو لعدم قدرته على إيصال الأفكار^(٥٤) .

والدكتور رجاء عيد ينكرُ الاتجاه الافراطى للغموض والذي يصعبُ كشفه أو استحيلُ ويرى (أن الشعرَ ليس معناه الدخول في مسارب غامضة أو متاهات ينزلُ فيها التخيل لأن ذلك يكون شعرا رديئا ، وإنما نقصدُ بغموض الشعر المقبول هذا الغموضُ الفني الذى سرعان ما يكشف عن آفاق أرحب عن طرق نوع من الشفافية التى سرعان ما تفجرها مشاركتنا الطبيعية للعمل الفني ، والتى تتبينُ شيئا فشيئا كسائر في الظلام سرعان ما يقترب منه ضوء الفكر والوجدان ، حتى يبينَ عن نفسه على وجه من الاحتمال^(٥٥) .

ونحن حين نميل إلى الإيحاء والاستكشاف ونذكر الضبابية في النص والتلميح والتجاوز لانسير في موكب الذين يجعلون من النص فضاء مكشوف لا يستطيع الانسان ان يكتشف من خلاله أو أن يصل إلى درجة واعية .

ولانبتغى النص الذى يقرأه الفرد أو القراء ويشرح بشرح مختلفة ومع ذلك لانبغى كنهه وإنما نبتغى النص الذى لايتجاوز الوعى الانسانى ، وإن تجاوز بعض العقول ولايقع فوق كل الخبرات وبذلك لا تستحيل معرفته .

وإن التمرد وكسر القيود والانفلات من كل نموذج أو سياق أو قل التحرر من العقل والضوابط الفنية جميعا ومن المعيارية اللغوية يسلمُ لى فوضوية لايمكنُ أن يرضى بها الأدب وقد عابها النقاد الأوربيون أنفسهم وأعرضوا عنها حين تمثل هذا الاتجاهُ في الدادائية «فلقد عرف الشعر الأوربي في بعض فترات تمرده وهياجه نوعا من التأليف الميكانيكى أو العشوائى فيه القصيدة من كلمات ترد عفوا أو صدفة فتفاجئ الشاعر نفسه كما يفاجأ لاعبُ النرد بها أسفرت عنه رميته وهو ما تلخصه هذه العبارة

(٥٤) دراسات في لغة الشعر/ رجاء عيد ص ٣٤ .

(٥٥) رجاء عيد ، دراسات في لغة الشعر ص ٤١ .

«كلمات في قبعة» تلك التي كانت تطلق على هذه اللعبة اللغوية في شعر الدادائيين
خذ صحيفة ومقصا والتقط مقالا بطول القصيدة التي تريد نظمها ، فقص المقال
وحوله إلى كلماتٍ ضع الكلمات المقصوصة في كيس وحركه بلطف اخرج ما فيه كلمة
بعد أخرى واكتبها بالترتيب الذي خرجت به تلك هي قصيدتك^(٥٦).

ويقرب من هذا ما اثارته الصحف السعودية حول مداخله أحد النقاد لنص
حدائي ورأى أن النص ختم بكلمة «أنتهت ، فدار حديثه حول هذه الكلمة
وما توحيه واستخرج منها جدلا كثيرا ثم تبين أن الكلمة من وضع الناسخ وليست من
أصل القصيدة .

(٥٦) إبداع سبتمبر ١٩٨٥ ص ١٠ من مقال لأحمد حجازي .

أسباب الغموض في الشعر المعاصر

إنَّ الغموضَ سمةٌ فنيةٌ غيرَ أنه في هذا العصر أخذَ يتنامى حتى تجاوزَ الحدَّ ولم يخضع للواقعية والعقلانية ، وربما يعودُ ذلك للفلسفة التي تسربتْ لجمالياتِ الأدبِ كمثُلِ الاعتمادِ على الحدثِ غيرِ المتناهي ، والابتعادُ عن العقلانية والتضادُ للتجربة العلمية ، وتغيُّرُ وظيفة الأدبِ عندَ بعضِ المدارس من الرؤية الإنسانية إلى شعورية فردية أو قضايا جماعية اجتماعية إلى الرؤية الكونية الأكثر شمولاً . وكذا الاعتمادُ على فلسفة التجريد المطلق النابعة من الفلسفة الاغريقية التي تشدُّ الكمالَ عن طريق الجدَل ، وأيضاً يعهدُ الغموضُ إلى الغاء الضوابطِ الفنية والتمرد عليها ولتتلاقى الفنون اللغوية في أشكاليات مقاربة ومن ثمَّ تتوحدُ ونحن سناخذُ بالتفصيل في أسباب الغموض التي تعود منها إلى هذه الفلسفة والتي تأتي من روافد أخرى ومنها :-

■ عدمُ القدرة على بلورة الفكرة والبأسها جِللاً لفظية تعبر عنها ، وهذا يكون عيباً إذا عاد إلى ضعف الشاعر اللغوي والاسلوبى والتخيلي ، ويرجعُ أحياناً إلى عدم اقتناع الشاعر بالفكرة ، أو عدم وضوح رؤيتها أمامه ، ولكن الغموض إذا ما تأتى من طبيعة التلاقح بين عوامل التجربة الخارجية والجوانب الشعورية والفكرية والنفسية وقدرة اللغة الشعرية وأن تكاثفت من خلال كثافة التجربة فإنها تنزبن بالغموض وتلك حسنة من حسنات الغموض لأن فيه مشاكلة ومشابهة النفس الإنسانية ومعالجتها إذن ، فالغموضُ خاصة في طبيعة التفكير الشعري لا في طبيعة التعبير الشعري^(٥٧) .

■ والقصيدة الحديثة تعتمدُ على الرؤيا والحلم ومن ثمَّ تتسمُّ بالضبابية وعدم التجلي والوضوح ، تكونُ الرؤيا التي تمثلُ الصيرورة الشعرية يكسوها الظلامُ والعتمة

(٥٧) الشعر العربي المعاصر د . عز الدين اسماعيل ص ١٩٠ .

والغموض ، ومن هنا يتسرب الغموض للشعر الحديث ، فما دام أن الأصل غير واضح فإن الوليدَ حتما لا يتضح أمره «فليس التلاعب بالاوزان أو اللغة أو الصور هو السر الكامن وراء هذا الغموض ، إنما هي الرؤيا المأسوية القائمة في جوهرها العميق هي التي تصوغ هذا الشعر على نحو شديد من الغموض والتعقيد»^(٥٨) .

■ وما يتجاوز الحد في الغموض ان يتولد بطريقة غير إرادية كأن يريد الشاعر شيئا وتخرج القصيدة بشيء آخر «فيبدأ الشاعر الابداع بدافع غامض ، بشيء ما غير واضح يريد ان يقوله وحين ينتهي ويصير إلى ما انتهى إليه قصيدة يجد إذا كان شاعراً اصيلاً أن لا صلة بين ما أراد أن يقوله وبين ما قاله في هذه القصيدة»^(٥٩) .

ونقول : إن الغموض المعتدل لا يناقِ الارادة ولا يعارضها بل إنه يفرض نفسه فرضاً على كل ما يريده فيخرج الغموض نتيجة للتنازع بين الادارة والواقعية والاضطراب النفسى . ولذا فإن انعدام الصلة بين الارادة والقصيدة أمر مرفوض يناقِ العقلانية .

■ جدة القصيدة وخرجوها عن المؤلف ، لأن القصيدة الحديثة في الشعر العربي لم تتضح رؤيتها إلا بعد أن تمكن العرب من التواصل مع الثقافة الاوربية ولكن الشعوب في حساسية غير متناهية من هذا التأثير والنقل ، خشية على أصالتها فاحشى ما يحشونه أنها تكتسح أنماطهم وتراثهم ، وهذا الهندي البوذى طاغور يقول اسمح أن تدخل التيارات من النافذة ولكن لا اسمح لها أن تقتلعنى من جذوري . هذا جانب والجانب الثانى أن القصيدة لم يعهد الذوق العربي . سياقها ولا عملية التكوين ومنهجية مقننة فهي خاضعة للجدل قابلة للرفض لكى لا يتزعزع رواد الحداثة فإنهم جمعوا بين الشكل ذات الاصاله والشكلانية الحديثة للقصيدة . .

كمثل نازك الملائكة وبدر شاعر السياب كما يتضح من دواوينها التى تضم بين دفتيها اللونين معا وربما اجتمعنا في قصيدة واحدة كقصيدة «بورسعيد» لبدر شاعر السياب :-

(٥٨) شعرنا الحديث إلى أين ص ١٢ .

(٥٩) يوسف الخال الحداثة في الشعر ص ١٨ .

فقد استهلها :-

يا حاصد النار من اشلاء قتلانا
منك الضحايا ، وإن كانوا ضحايانا
ويقول :-

حُيِّتِ موتى ، واحياء وابنية
والنار والبادرون الناركم زرعوا
من كل وجه لطفل فيه زنبقة
الجو مما يلزون الحديد به
سقاك من كل غيم فيه احزره
كأن الرصاص التي غنى بتوأمها
مسهدات أو استعصين أركاننا
من كل ثكلى لعزرائيل بستانا
تدمى ، وتلتئم فيه الريح غربانا
قاع الجحيم التظى وانصب طوفانا
خوف الثرى واشتهته النار ازمانا
سقراط وابتل منها جرح وهرانا

من أيارثة ؟ من أي قيثار . .

تنهل اشعارى ؟

من غاية النار .

أم من عويل الصبايا بين أحجار .

منها تنز المياهُ السود واللبن المشوى كالقار .

من أى احداق طفل فيك تغصب ؟

من أى خبر وماء فيك ما صلبوا ؟

من أيما شرفة ؟ من أيما دار ؟

تنهل اشعارى .

كالنار

كالنور في رايات ثوار . (٦٠)

■ والاعتقاد المسبق أن القصيدة الجديدة عسيرة الفهم - فالقصيدة الحديثة تصدر لها نفر من الشعراء الذين ساروا على نهج المدرسة الرمزية والمدرسة السورالية الفرنسية ، اعتمدوا الرمز ومن ثم استلهموا المذهب الغامض واعرضوا عن الرمز الذي يصحبه ما يدل عليه . واذن فالقصيدة العربية الجديدة لم تتنام تناميا وتنشأ نشوا

(٦٠) انشودة المطر ص ١٨٣ .

بل ولدت متكاملةً وولادتها متكاملةٌ ناجمٌ عن استيرادها عن سياقاتٍ خارجية وتبلورها متكاملة جعل تكوينها يتعدى عن التنامي الذوقى للسياق والنموذج ومن هنا صار سباقها معارضا ومضادا للسياقى الفنى ذات الأصالة والمعاصرة معا . ورغم ظهور معالم القصيدة عند بعض المبدعين فى اوائل القرن العشرين ويزعم بعض المنظرين ان كتابة جبران خليل جبران وخواطره من القصيدة الحديثة ، وإن لم يدع ذلك ، وظهرت بذورها عند لويس عوض ، أما على احمد باكثر فإنه ترجم مسرحية «روميو جولييت» ومنها بعض المقطعات التى تعتمد على التفعيلة ، ومنها أيضا شاعر عراقى وعارض قصيدته الشاعر السعوى محمد حسن عواد بقصيدة نشرت فى القيلة عام ١٣٤٢هـ . ورغم التزام الذين رادوا التجربة بالتفعيلة وموسيقاها ، فإنهم خاضوا سبيلها على تخوف بل أن جلهم اعتبره من المجزوه والمسطور . حتى بدأتها نازك الملائكة على توجس وضرورة تعبيرية فى قصيدتها «الكوليرا» .

قالت :-

«وكنْتُ كُتِبْتُ تلك القصيدة أصورُ بها مشاعرى نحو مصر الشقيقة خلال وباء الكوليرا الذى داهمها ، وقد حاولتُ فيها التعبيرَ عن وقع أرجل الخيلِ التى تجرُ عرباتِ الموتى من ضحايا الوباء فى ريف مصر ، وقد ساقنتى ضرورة التعبير إلى اكتشاف الشعر الحر» وفيها تقول :-

طلع الفجرُ
أصغ إلى قوع خطى الماشين
فى صمت الفجر ، أصغ ، أنظر ركب الباكين
لا تحص ، أصغ للباكِينا
اسمع صوت الطفل المسكين
موتى ، موتى ، ضاع العدد
موتى ، موتى ، لم يبعد غذا
فى كل مكان حسد ندبه محزون
لا لحظة اخلاذ لا صمت

هذا ما فعلت كف الموت

الموت الموت الموت^(٦١)

■ ومنها فقدان الأفكار المشتركة بين الشاعر والقارئ نظرا لهيمنة الفكر الغربي بمساريه اليميني واليساري ، وتياراته المتغيرة والمتعارضة على أولئك الذين تصدروا لتنظير الحداثة والابداع فيها ، فإن انهارهم تدفقت من ينباع مفاهيمهم تلك ، ولذا كانت في غربة وعزلة عن العالم العربي فأصبحت بمنأى عن الفهم والوعى بها إلا بعد دراسات متأنية . حتى الثقافة العامة المكونة للمجتمع وثقافية أولئك كانت متعارضة ومتباينة في كثير من مناحيها . لذا لف القصيدة الجديدة الغموض من داخلها وخارجها وموطنها الجديد ، فكأنها زُرعت في أرض ليست صالحة لها . وقد اشار الى ذلك الدكتور غازي القصيبي «الغموض هنا ليس متعمدا ، ولكن يجيء عفويا وتلقائيا نتيجة ثقافة الشاعر والقارئ الذي يفتقر إلى ثقافة مماثلة أو مقارنة لثقافة الشاعر سيعجز عجزا تاما عن فهم مقصد الشاعر ، والعيب - أن جاز استخدام هذا التعبير - لا يعود إلى الشاعر ولا إلى القارئ ولكن إلى اختلاف الثقافتين»^(٦٢) .

ومن ذلك قصيدة السياب التي تحت عنوان «من رؤيا فوكاي» حيث جلب فيها عددا من الاشارات الى اساطير الأمم ، فيضع لها عنوانا مكونا من اسم اجنبي (من رؤيا فوكاي) ووضع لها عنوانا اجنيا من «كونغاي كونغاي» وفيها يشير إلى الناقوس ، ويذكر بكين وشنقهاى ، ويشير إلى مسرحيات شكسبير ، ويرحل إلى غرناطة ويومئ إلى الفجر ، والمسيح والصليب ، ويقتبس من شاعر الاسبان لوركا ، ومن الشاعرة الانجليزية «ايدت ستوبل» ويعرج على بعض القصص القديمة مثل قابيل وهابيل وجنكيز ، وبابل . والشاعر ادرك التفاعل الثقافى ، وإنه عنصر الغموض لذا فإنه علق على القصيدة بهوامش توضيحية^(٦٣) .

(٦١) نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ص ٢٣ .

(٦٢) الرياض ع ٦٨٩٩ في ١٧/٩/١٤٠٧ هـ .

(٦٣) أنشودة المطر بدر شاكر السياب ص ٤٣ .

■ الثورة على السياق النموذجي فمن الثابت الذي لا ينكره العاقل تجذر الانماط ذات الأصالة التراثية في تكوين المفاهيم والآليات الذهنية ، فهناك الأسلوب والسياق الذي يمثل الاضافة التي يُهتدى بها وإن اختلفت الاتجاهات فتستغربُ الحداثة تارة على تلك السياقات والأساليب السالفة مما أوجد فصاما بين معالم الجمال الفنية للقصيدة الحديثة وبين المعالم الفنية التي كونت المفاهيم الجمالية الأولى فكانت لبنة من لبنات الغموض حول القصيدة الحديثة .

«ومغزى هذا أن الشعر الجديد كثيرا ما يبدو غامضا معقدا ، لأنه يتطلب من قارئه تعميقا في التفكير وارهافا في الحساسية ، وجهدا في المتابعة والتفاهم والتعاطف لم يكن يستدعيها الشعر القديم إلى هذه الدرجة ، وسبب ذلك أن الشعر الجديد يحاول أن يغوص وراء معانٍ وتجاربٍ نفسانية عميقة باطنة»^(٦٤) .

الأمر الذي أوحّد نفورا وجفاء بين الحداثة ومتذوقى الشعر ، مما يجعلهم يُزرون على الشعراء الجدد تجاربهم ومغامراتهم ، وكان من الخير ان يطيلوا النظر والتأمل فيه حتى يأنسوا ويألفوا سياقاته واساليبهم ، ولكي تصدّر الاحكام عن عقلانية وروية ولنورد مثلا من شعر صلاح عبد الصبور بعنوان - تأملات ليلية » .

«ابحرت وحدى في عيون الناس والأفكار والمدن
وتهت وحدى في صحارى الوجد والظنون
غفوت وحدى ، مشرع القضية ، مشدود البدن
على آرائك السعف
طارق نصف الليل في فنادق المشردين
أوفى حوانيت الجنون
سريت وحدى في شوارع لغاتها ، سماتها عماء
اسمع صدى خطاى
ترن في النوافذ العمياء
وطرت بين الشمس والسحابة

(٦٤) د . محمد النوبي . قضية الشعر الجديد ص ١٣٧ .

ونمت في احضان ربة الكتابة
لكننى في هذا المساء
عمدا ساقى في مقعدى المؤلف
أحس إنى خائف
وأن شيئا في ضلوعى يرتجف
وإننى اصابنى العى فلا أبين
واننى أوشك أن أبكى
وأننى سقطت في كمين^(٦٥) .

ومنها عدمُ توافر النصوص وتكاثرها حتى تفرض وجودها وسياقها ، هذا ما كان للحدائثة المعاصرة في بداية أمرها ، فلم تكن النصوصُ الفاعلةُ وذاتُ الجمالِ الابداعى من الكثرة بحيثُ تُثبتُ وجودها وكانَ تنظيرها سبقها ، الأمرُ الذى دعا هذا الفن أن يتكون وليس له نموذجُ سابق يُحتذى ، مما جعل النتائجُ التى تكاثر فيها بعد يتوالد لا انتهاء له ولا عناصرُ قوية تسهمُ في تكوين بُنيته .

ليس هناك من روابط فنية تجمع شتات الشعراء فاضحى عملهم تجارب متعددة تتمثل في أفراد أكثر منها نصوصا ، لأن الحدائثة التى ثبتت الغموضَ واحتضنته قوضت الضوابط الفنية من حيث الصور البلاغية . واللغة المعيارية والجرس الموسيقى حتى المضامين العليا ، أرادت تحطيمها - ليس من جامع يجمع بين النصوص وتكاثرها فأصبحت تماما كالنثر الفنى الكل يعجب بجماليتها وفنيته ولكن لا يدرجه ضمن روابط فنية محددة .

■ ومنها حضارةُ اليوم التى تلاقحت وتواصلت وتمازجت وتفارقت أصبحت في غاية التعقيد والتنوع وهذا التنوعُ وذلك التعقيد أثرا على التكوين الذهنى للفرد فلا بد من تأثرِ الشعور والاحساسِ والتفكيرِ فيكونُ النتائجُ معقدا يميل إلى الغموضِ » .

فلا ضيرَ حينئذٍ في وقتنا الحاضر والمعاصر من أن تلتقى حكمةُ صينية ، وأخرى عربية ، وأخرى انجليزية وربما تتعانق الاحداثُ العالمية ، مع الاحداث الشخصية

(٦٥) شجر الليل صلاح عبد الصبور ص ٧٥ .

وربما جاءت الاسطورة من الشرق وواحدة من الغرب ، وربما لون الشعراء بين حياتهم الجادة وحياتهم الهازلة ، وبين الروح والفكر ، وبين الفكر والبساطة والوضوح ، تماما كما يحدث في معيشة انسان اليوم الذى يحُدُّ الكونَ في داره فيرى الآلات الامريكية ، واليابانية والانجليزية وكأن القارات والعالم تجمعُ في حجرة واحدة ، وهكذا تكون القصيدة الحديثة وهذا اللون تجدهُ عند الشعراء الذين نالوا حظا وافرا من الثقافة العالمية ، لذا فإننا نجدُ الكثيرَ منه عند السياب والبياتي وصلاح عبد الصبور في قصيدته «الخجل» . وهل هو شعور غريب» . فإنه تحدث عن التاريخ الإسلامى ومعركة حطين ، وصلاح الدين ثم عن اصدقائه الشعراء من دول شتى وعن الطبيعة والحب وآلام العصر واحزانه وما يعتلج في نفس الإنسان خشية ما يجتبه له الغد :-

والقصيدة تمثل نماذج الثقافة المعاصرة ، وانصهاره في التكوين ذهنى للشاعر وتنبؤ عن قدرة استيعابه لهذا الكم الهائل من اللغات والإحاطة بالطبيعة في ديار متباعدة ، والغموض يأتي إليها من جانب القارئ الذى استقى ثقافته من مصادر غير مصادر الشاعر ، أو كان له توجهات فكرية مغايرة لمفاهيم الشاعر .
والشاعرُ يلجأُ الى الغموض جنوحا عن التقليد والسذاجة والبساطة ، ولذا يقوم بتكثيف الصور الخيالية واقحام المشاعر والانفعالات حتى يتلون النصُ بضبابية غموضية .

● ويلجأ الى الغموض غير المقصود بذاته وإنما بقوله عن طريق تخصيب الفكر والاحساس الذى يجتنب خلف أستار من الحلل اللفظية .

● ومن أسباب الغموض في الشعر الحديث البعدُ عن المباشرة والوضوح والتقريرية من حيث أخذ المضامين ، فإنهم يجتنبون مباشرة الحديث في النص الابداعي في مصارحة ومكاشفة ، وإنما يطعنونها بسهام متباعدة تدعو إلى القضية من خلال توارد الأفكار فحسب ، ومن حيث الأسلوب فإنهم يتعدون عن هدف وضوح المعنى والكشف عنه من خلال اللغة وينأون عن التقريرية السائده .

● تراسل الحواس والصور وتراسل الكلمات كل هذه تؤدي إلى تكاشف الضبابية

حول نص الحداثة ، فإنهم ينقلون ما الذوق للنظر وما للعقل للذوق وما للمس للذوق وهكذا - كقول محمد عفيفى مطر ص ٣٤٨^(٣٧) . بين عيني دمي ، فوق جيبي / موعِد بيني وبين الساحة الممتلئة / ببطون الامهات / ومحارِث العيون المطفأة .

(أنت في هوة أعماقى غائرة / طلعت .. نارا من الصخر ، ينباع فرض مشتعل ونوافير طحالب / تحت انقراط الطيف بدءا من تواقع النهاية ..) وأنا كنت بأخلاق المشية / هاربا نحو جذور الشمس فى لحم الظلام^(٣٨) .

● وكثيرا ما يسخرون الاساطير الموغلة فى القدم والتي حُقِّقَتْ بتراكم الزمن والاستخدام وتغيير المفاهيم ، وربما أن تلك الاساطير من ثقافات مختلفة ولا تمت إلى العربية بصلة ، الأمر الذى يؤدى إلى عقم ادراكها .

فمن لم يقرأ أساطير اليونان لا يمكن أن يفهم الاشارات العديدة إلى (سيزيف) وبقية سكنة جبال الاولب ، ومن لم يقرأ الاساطير البابلية لم يتمكن من فهم الاشارات إلى جليجا مش أو (أدونيس) أو عشتروت .. وباقى الفرقة وقل الشئ نفسه عن الاساطير المصرية والعربية الجاهلية وكل ما فى الدنيا من اساطير ، ومن لم يقرأ الفلسفة الوجودية لن يتمكن من استيعابها فى شعر وجودى ومن لم يسمع عن شطحات الصوفية لن يتضح له معنى قصيدة تحتوى على شئ منها وقس على ذلك ما شئت وكتب هذه السطور مثلا - لايتذوق شعر عبد الوهاب البياتى مثلا ، لهذا السبب فهو فى الكثير من شعره ، ينزع من آبار ثقافية لا أحسن الزوج منها . . . »^(٣٩) .

مظاهر الغموض :-

أولا :- الاعتماد على الشكلية الفنية الجدية التى تقوم على شكلٍ جديدٍ يشحذ التصور ولا يصور ، ولذا فإنهم دأبوا إلى تغيير وظيفة الصور الشعرية التى كانت غايتها

(٦٦) د . عبد الحميد . الاتجاهات الجديدة .

(٦٧) والنهر يلبس الامتعة : ص ٣٩ .

(٦٨) الرياض ع ٦٨٩٩ فى ١٧ / ٩ / ١٤٠٧ هـ من مقال للدكتور غارى القصيبى .

التوضيح والكشف والتجسيد ، فأصبحت مهمة الشاعر أن يثير الصور في خيال القارئ ولا يرسمها له . وبذا يترك له حرية التحليق ويشركه في عملية الابداع ، وعلى هذا تصدق مقوله (أرشيبا لوماكليس) في القصيدة «ينبغي أن تكون لا أن تعني ، إنها تنتمي إلى تجربة ، ولا تنتمي إلى تفسير»^(٦٩) .

فكل لفظة تُشحن بالايحاء ، وتحمل المدلولات وبتكاملها مع التركيب تمثل الحقائق لاتصورها تصويرا ولا تصنفها وصفا ، ولا تفسرها تفسيراً .

المظهر الثاني :-

أولئك الذين يتكلفون الغموض تكلفاً ظاهراً ، إما لعدم وجود الموهبة والاستعداد أو لضعف في اللغة أو هزال في التكوين الثقافي ، وهؤلاء يلبسون حلل الغموض بحجة أنهم يطلبون النص الذي لانهية له ، ولا بلوغ إلى مبهمه ، وفك انغلاقه ولم يكن غموضه ناتجاً عن كثافة شعورية أو تأرجح نفسي ، وقد عاب هذا اللون كبار المنظرين والمبدعين ومنهم الدكتور غازي القصيبي حيث يقول : «أما النص الغامض في ذاته فهو من قبيل العبث والهراء ولا اعتقد أنه يستحق عناء التعليق يستوى في هذا النص الشعري أو العلمي والفلسفي ، ولا أتصور أن الجدل الذي يثور الآن يثور حول هذا النوع من الغموض» .

وهذا اللون إما أن يكون نتاج شعراء أسرفوا في طلب الشعر ، أو نتاج فئة غير شاعرة وجدت الطريق أمامها مفتوحاً ، والادعاء له سبيل من التأويل ، فاقتحمت الفن الشعري . فحدثت الفجوة بين التجربة والحالة الشعورية واللغة ، وأصبحوا يرصفون كلمات ويتمحلون لها الروابط والمدخلات والعلائق التي تجمع بينها ولا يبالون بالتدقق الشعري الذي يمثل المغناطيس أو الكهرباء الخفية للشاعر التي تقترن بكل شعر صادق نابع من موهبه «وهما داء الشعر في العصر الحديث وسرطان الأدب الذي به فسد الذوق ، ودخل في الأدب من الكتابات ما ليس منه ، وإليه

(٦٩) ابداع ع ابريل ١٩٨٣ ص ١١١ .

يرجعُ الخلطُ بين الجيد والردى ، والالتباس الحاصل فى أذهان النقاد فى معنى الأدب وموقوماته وسيلة ، فضلا عن الحيرة التى بأنفسهم فى مقاييسه وعباراتٍ نقده» .

● أما إذا توارد الغموض من تكثيف المعانى والتكثيف الزمانى أو من التجاذب النفسى من الاحزان والافراح ، أو بين الاقبال والأدبار أو طغيان جانب على آخر فإنه شريحة من الشرائح الفنية التى لها صدى فى ادبنا الحديث والتى لاتنأى الجمالية الفنية .

كقول الشاعر محمد عفيفى مطر .

ويا ليلاي قد اطعمتُ روحَ الليلِ احزاني

واورادى والحانى

وهاجت فى عروقى الصمت كاسات من الأفكار

وفى عيني شادوف يصب الليل أوهاما ضباية

ودوامات اشباح ، وغدراننا من الأهات

تعوم على حوافيها تصاوير خرافية

أفاع تأكل الأضواء حتى الشمس تأكلها

عبير الزهر مسموم الخطى يلهث

وغابت هطول الرياح بعثرها

ودود يحفر الساحل

بوارى فيه انسانين مسحورين

ويا ليلاي لو أن الكرى يخطر

على عيني كى ارتاح كما ارتاح

وكى انسى نباح الجرح

وانس رجفة الطاحونه

إذا ما دار هدارا على الاحياء .

فأنت ترى تكاتف الصور من جمال الحب والحبيب والاحزان التى تهجم فى غمرة اللذة حتى تزيد من تدفق الشرايين حتى كأن الدماء تتحول إلى افكار تجرى فى خلايا

الجسم ، أو هى التى تحمل تدفق الهواجس والدوامات والاشباح والغدران والصوم والتهام الاضواء وهطول الأمطار وغيرها مما ينتسب إلى الصراع النفسى الداخلى النابع من أعماق الشاعر ، فتشعر أنك امام كم هائل من الموجات النفسية التى تحمل المعانى معها فى تدفقها مما يجعل القارئ أمام تأويلات وتفسيرات وقراءات متعددة للنص ، نتيجة لكثافة الطاقة الشعرية والحدة الشعورية ولكن ما يزال القارئ يمسك بمحور النص حتى يبلغ مرحلة الوعى فيه .

● والغموض لا يستلزم نفي المعيارية النحوية أو اللغوية أو غيرها من الوان الضوابط التى توجه ولا تكبل تعين ولا ترخى الحبل ، لأن الغموض يكون فيما تحت الالفاظ والتراكيب ، «إذ هو غموض يعلق بالمدلولات ذاتها لا بالدوال المستخدمة لها . وليس معنى الغموض فيه أنه يخفى المدلول ، وإنما معناه أنه يُحِيلُ القارئ على مدلول غامض ، أى على مستوى من المفاهيم والمعانى فى حد ذاته غير متبلور بالوجه الذى يمكن الشاعر من الكشف عنه واجلائه ، حيث يكون من واجب الشاعر التلطف فى شأنه ومعالجته بالكلام ، مع الابقاء على خصوصيته المتمثلة فى ذلك الغموض . اساسا وإلا انحرف الشاعر عن مهمته السامية»^(٧٠) .

● ومن مظاهر الغموض التمازج بين اللغات غير أن الأمر مقبول من جهة ومرفوض من جهات أخرى ، فقد قبله النقاد الأوروبيون كاليوت حين استخدم بعض الكلمات اللاتينية القديمة ، وبرهن المؤيدون له بأن اللغة اللاتينية ذات شمولية بين اللغات الأوربية ، وأن الجميع يدركونها ويعرفونها ولذا فإنهم قبلوا من البيوت هذا المبدأ ولكنه مرفوض من أهل العربية لأن اللغات الأخرى ليس لها علاقة مع عربيتنا ولا يفهمها جل العرب ، فإنه من المعيب استجلاب كلمة فرنسية أو انجليزية وادخالها ضمن قصيدة عربية اللهم إلا كلمة من الكلمات كاسماء الآلة التى فرضت نفسها فى بعض الاقالييم وراحت بين ابناء الاقليم حتى كادت أن تُعَرَّبَ فلا مانع من ادخالها كما أدخل الأوائل بعض الكلمات العامية على علاقتها مع معرفتها وندرتها وإيجاد قرينة لها . ومن المؤيدن لاقتباس الكلمات الأجنبية / الدكتور عز الدين اسماعيل حيث

(٧٠) فصول سبتمبر ١٩٨٤ ص ٣٣ من مقال محمد الهادى الطرابلسي .

أعجب بها في شعر صلاح عبد الصبور في قوله «ولا أظن أحد يخطئ» هذه الدائرة التي دارت فيها عبارة بودلير ، حتى وجدنا الشاعر العربي كلم بودلير بنفس كلماته ، لقد قال بودلير هذين السطرين ذات يوم ، ولكنه لم ينطق بلسانه وحده ، بل كان ينطقُ بلسانِ انسانِ العصور الحديثة كلها ومن ثم لم يكن غريباً ان يبرز صوته من خلال اليوت ثم من خلال صلاح عبد الصبور ، فلئن اختلفت مداخل التجربة التي أراد كل من الثلاثة التعبير عنها فلقد اتحدت ابعاد رؤيتهم فكانت الكلمة الأخيرة للواحد منهم هي كلمة الآخرين ، يقولها بودلير ثم يرددها بعده اليوت ، ثم يردُّ بها الشاعر العربي إلى بودلير»^(٧١) .

ومن الخير ان أنقل تعليق الاستاذ الدكتور يوسف عز الدين الذى يعارض الفكرة فيقول : «أشهد بالله أننى أوغلت في الخطأ ولم أفهم إدراك الدوائر كما لم يفهمها الكاتب ولا الشاعر نفسه إنما هو تقليد وادعاء بفهم اللغة الفرنسية ، وضياح الشخصية العربية في الانبهار الغربي»^(٧٢) .

من مظاهر الغموض :- روافد أخرى منها :-

أنه يلجأ الشاعر إلى الالفاظ المشعة الموحية ، وهم يسبرون غور اللاشعور ولذا تظهر الفاظهم مصحوبة بزخات شعورية متأرجحة بين الإبانة والخفاء .

● والغموض يعتمد على الجرس الموسيقى والإيقاع ويرون أن الموسيقى تفسر المعنى بل يتلاحمان ، فالغموض يستخدم الإيحاء . . ويدأب إلى التلميح والإشارة ويعتقد المنظرون أن صدى الموسيقى ورجعتها الذى ينسل من جرس الأصوات وانسجاماتها ، وترديد الصوت في التراكيب الفنية ووقها ، وحسن صداها والتناسب بينها والتآلف بينها ، والمضامين التي يرمى إليها الشاعر كل ذلك يؤدي إلى كشف الغموض ويمثل الدلالة المباشرة .

(٧١) د . عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ص ٣١٥ .

(٧٢) د . يوسف عز الدين ، التجديد في الشعر الحديث ص ٢٣٧ .

وفي السنوات الأخيرة اشتهر كتاب جديد عن الغموض للكاتب الفرنسي «امبسون» صنف أنواع الغموض إلى سبعة انماط :-

النمط الأولي : «أن تكون الكلمة أو العبارة مؤثرة من وجوه مختلفة في آن ، ويدخل تحت هذا النمط وهو أوسع انماطه اشياء كثيرة» . .

النمط الثاني : «الذي يكون فيه الغموض على مستوى الكلمة والتركيب ، عندما يدمج معنيين أو أكثر في معنى واحد» أى أن الغموض ينبع من الكلمة والتركيب معاً» . .

النمط الثالث : «يحدث عندما يكون هناك فكرتان مرتبطتان بالسياق فحسب يعبر عنها بكلمة واحدة في نفس الوقت» . وهذا الذي يسمى في البلاغة العربية بالتورية» . .

النمط الرابع : «عندما تحتمل عبارة معينين مختلفين أو أكثر يتضافران لتوضيح حالة ذهنية أكثر تعقيدا لدى الكاتب» ، ينجم الغموض عن احتمال تأولين مختلفين لكامل النص وليس لمفرداته أو بعض تراكيبه» . .

النمط الخامس : «يحدث عندما يكشف الكاتب فكرته في اثناء فعل الكتابة ، حيث يظهر تشبيه لاينطبق على شيء بالذات ، ولكنه يقع بين شيئين عند انتقال الشاعر من احدهما للآخر» . .

النمط السادس : «وهو الذي ينتج عندما يكون الكلام متناقضا ويجبر القارئ على أن يبتكر تأويلات أو أن تكون عبارة مالا تقول شيئا ، وذلك لتناقضها ، أو لعدم علاقتها بما يقال فيجبر القارئ على ابتكار تفسيرات وتأويلات» . .

النمط السابع : «هو الذي ينتج عن التناقض الكامل الذي ينعكس في إنفعال في ذهن الكاتب ، وذلك يكون المعنيان الخاصان بالكلمة هما المعنيان المتقابلان الذين

يحددهما السياق ، وإن الأثر العكسي هو بيان انقسام رئيسي في ذهن الكاتب ، وهذه الحالة شائعة على درجات متفاوتة»^(٧٣) .

والغموض مطلبٌ فني لم ينكره منظر نقدي ، وقلٌ من تجاوزهُ من الشعراء فالغموضُ عملية نسبية في الشعر ، فلا نريدُ كلاماً دارجاً ولا سطحياً ولا نبتغي كلاماً لا يفهم ولا يمكنُ أن يفهمَ فالطبيعةُ أماناً رحباً وآفاقها أرحبُ وانفسنا أعمقُ والكونُ بأسره إنما هو جمادٌ لا حراكَ به ، ولا حياةً تداخله ، ولا حاسةً تلامسه ، ولا تذوقاً يتطعمه ، حتى يمتزج مع الانسان ويعانقه ، ويتلاقح معه يفتقه بعقله أذن فالانسان هو حياة الكون وهو معمره وبانيه وبعقله تدبُ الحياة في أى مكتشفٍ من الأشياء الموضوعة أماناً ، وهناك تلاقٍ بين الإنسان والطبيعة اراده الله ووضع بيد الإنسان مفاتيحه ، أما أن يصدرَ الغموضُ من عقلِ الإنسان ليرتفعَ به عن العقل فهذا الجنوح عن الطبيعة التي أرادها الله ، وليس معنى ذلك ان وظيفة الأدب الكشفُ والتفسيرُ والايضاحُ الدائم ، فهذا يمكنُ أن يكونَ منهجاً أدبياً ولا غبار عليه لكن لا يعارضُ بأي حالٍ من الاحوال أن يلجأَ منهج آخر إلى الغموض والبعد عن السطحية «إن الحياة فرضت علينا لغةً جديدةً وذلك حق طبيعي ، ولكني أريد أن افهم هذه اللغة واتذوق المعنى الجميل الذي اراده الشاعر ، وذلك من حقى الطبيعي أن امنع حاستي الفنية ولذتي الروحية من قراءة الشعر وسماعه وإلا فمكان الشعر سلة المهملات»^(٧٤) .

غير أن الغموضَ في بعض الاحيان يلجأُ إليه الشاعرُ هرباً من الفحش والبذاءة في القول واعتقد أنه مما يعاب في الغموض المحدث كثيراً من الهروب والعتمة والتعمية على ألوان من الأفكار واظهارها بمظهر آخر أكثر فحشاً وقد تحسد في كثير من الألوان الأدبية من شعر وقصه قصيره ورواية كأن تصور الحالة الاجتماعية بعملية من عمليات الجنس والولادة والتلاقي حتى تشعر بحالة نفسية تدعو إلى الاشتمرار

(٧٣) مواقف النقاد القدماء من الغموض : مخطوط .

ونظر لأن كتاب «امبسون» لم أعثر له على ترجمة فقد حرصت أن أنقل ترجمة الانهاط من بحث الدكتور السنجلوى ، رغم اختصاره الشديد .

(٧٤) د . يوسف عز الدين ، التجديد في الشعر الحديث ص ٢٢٩ .

وهناك تعبير مكشوف مما يدل على سخرية بالذوق الإنساني العام :-
وهذا وذاك كلاهما ينأى عن الذوق الإنساني الرفيع وأشبه ما يكون باللون الأدبي
السرى الذى يذاع سرّاً فى الأشرطة لصوت صاحبه أو بدونه مما يندى له جبين الزمان
والمكان والمجتمع .

ومما يدعو إلى تجنب الغموض أن الأدب كثيراً ما ينشدُ المنفعة إما حثاً غير مباشرٍ
على مثل عليا وقيم سامية ، وإما دعوةً لمعالجة قاضية اجتماعية ، ينفث الشاعرُ همومَهُ
ويصرخُ لعلهُ يجدُ منقذاً له ولمن يعانى معاناته حتى أن الشعراء أنفسهم أحسوا بأهمية
أدبهم وتأثير المعاناة الاجتماعية على أنفسهم ، وأنها من العوامل التى أبعدتهم عن
الغموض كما علل الشاعر محمد ابراهيم أبوسنه بعده عن الغموض بأن احساسه
برسالته الاجتماعية منعتهُ من الغموض «أحب أن أقولُ إننى منذُ فترةٍ مبكرةٍ جداً
بحكم نشأتى فى الريف ورحلى من القرية الى المدينة ، واصطدامى بواقع المدينة فى
مستوياتها . . . وكان علىّ كي استطيع مواجهة هذه التحديات أن انير جانباً من عقلى
بوعى فكرى وثقافى يربطني بالعالم على الأقل . . لهذا جاء شعرى يمثل نوعاً من
الرغبة فى التواصل مع القارئ ، هذا الشعر جزء منه يعنى القارئ»^(٧٥) ونجدُ أن
الدكتور عز الدين اسماعيل يرفضُ المقولة التى ترى أن الوضوح ممكن والغموض عجزاً
ويعتقدُ ضرورة حتمية للشعر وأنه الخاصية التى تلقت بالشعر الحديث وميزته عن غيره
من الشعر العربى .

«إن الشعرَ والغموضُ وعند ذاك يكون شيوخُ ظاهرة الغموضِ فى الشعر الجديد
دليلاً على أن هذا الشعر قد حاول التخلصَ من كل صفةٍ ليس شعرية ، والاقتراب
من طبيعة الشعر الأصلية»^(٧٦) .

ويفرق بين الابهام والغموض فالابهام نابع من النحوية واللغوية وأما الغموض
نابع من التكوين الفكرى لا التعبير .

وكثير من الشعر يتألقُ فيأخذ بالالباب وتراه مكسواً بحللٍ من البساطة والوضوح

(٧٥) الرياض ع ٦٨٩١ فى ١٤٠٧/٩/٩ من مقابلة مع الشاعر محمد ابراهيم أبوسنه .

(٧٦) الشعر العربى المعاصر ص ١٨٨ هـ .

ولكنه في الواقع وبعد التأمل تكتشف أنك أمام عملٍ عميقٍ يحتاجُ إلى إطالة النظر والتدبر «وهذه البساطة العميقة التي نصادفها لدى بعض الشعراء لا تجعلنا نرفض الشعر الغامض ، بل هي أخرى أن تعطفنا إليه ، لأن البساطة العميقة والغموض كلاهما شديد الأساس بجوهر الشعر الأصيل»^(٧٧) .

وختاما أجد أن الآراء النقدية من المنظرين العرب في القديم والحديث تلتقي على مائدة فنية واحدة تستظل بظلال العقلانية ، فهم جميعهم يميلون إلى الغموض والتأمل شريطة أن يجد الغائض الجواهر الثمينة بعد طول معاناة ومكابده وقد أشار إليه الأمدى في أول مراحل الحديث عن الغموض «وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغموض والفكرة ، ولا تلوى على ما سوى ذلك فأبوتما عندك أشعر لا محاولة ، أما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر»^(٧٨) .

وفي النقد الحديث أجمع أهل الفكر والمنهجية من المنظرين على أن الغموض إذا تجاوز العقلانية ومرحلة الإدراك بعد إجابة النظر فيه فإنه مرفوض ، واعتبروا هذا اللون من الأدب مجاف للعقل وللإنسانية ، وأنه زائل لا محالة ولا وجود له في الساحة الأدبية ، فنحن نرفض الشعر الذي يبدو غامضا متناقضا تتعاقب في كلماته ومشاعره النار والماء^(٧٩) لأنها إذا اجتمعا افسد كل منهما الآخر ونحن لا نبتغي من الشاعر الهدم والضياح إنما نريد ان يزيد جمالا وفكرا .

ونحن نرفض الغموض الذي يلجأ إليه الشاعر عجزا وتقصيرا أو لكي يظهر بمظهر المخالفة اللهم إلا إذا تجاوز بممارسته مرحلة الغموض المتعلق واتى بالتكثيف للكلمة والضبابية التي يمكن أن تنجلي .

وكذلك لا نريد المرحلة الغموضية اللهاة الموحية كالنجوم التي تلمح في السماء من خلال اغصان الدالية المورقة^(٨٠) فهذه أشبه ما تكون بالسراب المتقطع في الفيافي

(٧٧) الشعر العربي المعاصر ص ١٩٣ .

(٧٨) الأمدى : الموازنة ، ٥ / ١ .

(٧٩) الحدادة في الشعر العربي المعاصر .

(٨٠) المصدر السابق ص ١٦٥ .

الشاسعة فلا ثمرة فيها ولا فائدة ، وهذه السماء الصافية ذات النجوم المتلألأة فيها جمال وهداية فحسب بل إن الله قال ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٨١) ، إذا فهي قابلة لأن تكشف أسرارها بالعلم والتقنية بمشيئة الله .

وننكر أن يكون الشعر هو الغموض إنما الشعر هو التجربة ، وليس الغموض صفة لازمة لازمة ضرورة حتمية ، إنما الغموض معلم من المعالم الجمالية وتختلف مقاييسها كالمعالم الجمالية الحسية وربما يحمل الشعر وأن اختفى الغموض كما تكون الفتاة جميلة وإن اختفت عنها صفة من الصفات الجمالية كأن لا تكون نجلاء أو غيرها ، تماما كما يمكن أن يكون الشعر جميلا بالغموض دون الوضوح احيانا .

وليس من الغموض في شيء ذلك الذى يتكون من رصف كلمات متجاورات متكلفات ذات ايماء عاجل عن طريق توارد الخواطر فهذه كلمة تنتسب إلى السياسة واخرى الى الوجدان ، وثالثة الى الطبيعة ولا دلالة تجمع بينها ولا وشائج مضمونية تواصلها ولا معيارية لغوية تنتظمها ، فمثل هذا وإن احتوى على نزغات شعورية ولكنها أشبه باحلام اليقظة أو الهلوسة أو الأمانى التى سرعان ما تنحسر وتنسى ، بينما الشعر كثافة شعورية تلح للقناعة بالفكرة .

إذن نحن نرى أن الغموض هو الذى يعتمد على العمق والايحاء والشفافية وعدم المباشرة مع القدرة على بلوغ أصدافه ولألاه مع التزامه بالمعيارية اللغوية وعدم تعارضه مع ظلال العقل الذى نلتمس بها جمالياته وتواصله مع الواقعية . .

(٨١) الجاثية ١٣ .